International Journal of Social and Humanities Sciences Research

JSHSR

Uluslararası Sosyal ve Beşeri Bilimler Araştırma Dergisi
Uluslararası Hakemli Dergi- International Refereed Journal
ISSN: 2459-1149

Received-Makale Geliş Tarihi 22.06.2024 *Research Article /Araştırma Makalesi*
Published-Yayınlanma Tarihi 31.07.2024 10.5281/zenodo.12819485
Volume-Cilt (Issue-Sayı), ss/pp 11(109), 1402-1417

Muhammed Sakan
https://orcid.org/0009-0001-5551-0097
Ankara Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, Ankara / TÜRKİYE
ROR Id: https://ror.org/01wntqw50

تقويم ظاهرة التقديم والتأخير في كتاب الدر المصون للسمين الحلبي (ت:756هـ/1355م)

Evaluation of the Phenomenon of Fowardîng and Delaying in the Book *Al-Durr Al-Masun* By Al-Samin Al-Halabi (D. 756 AH / 1355 AD)

ÖZET

Kur'an olgusunun ortaya çıkışından bu yana toplumdaki farklı yönelim ve yaklaşımlarla her kesiminden müfessirler, Kur'an-ı Kerim'deki takdim-tehir olgusuna dikkat çekmişlerdir. Semîn el-Halebî'nin *ed-Dürrü'l-Masûn* adlı kitabı, bu olguyla derinlemesine ilgilenen ve ona dikkat çeken kitaplar arasında zikredilir ve bu ilgi onun yorum sürecine de yansımıştır. Semîn el-Halebî, Arap dilinde takdim-tehirin belagat amaçlarını açıklamış ve detaylı bir şekilde anlatmıştır. Ayrıca Semîn el-Halebî, takdim-tehirin olduğu ayetler ile aynı konuyu paylaşan diğer ayetler arasında karşılaştırmalar yapma konusunda başarılıdır. Dolayısıyla el-Halebî, sebep bildirme, gerekçeleme, tercih ve istinbat sanatında kabiliyet sahibi olarak, takdim-tehir bağlamlarında yeni anlamlar çıkarmaya yardımcı olan belağî tercihlerde ustalaşmıştır.
Bu araştırmada araştırmacı, Takdim-tehir olgusunu es-Semîn el-Halebî'nin *ed-Dürrü'l-Masûn* adlı eserinde ele alarak değerlendirmeye çalışmaktadır. Bu makale, müfessir es-Semîn'in analizlerinin içerdiği belâgat faydaları göstermekte ve bu müfessirin Kur'an-ı Kerim ve ilimlerini inceleme konusundaki çabalarını araştırmaktadır.
Anahtar Kelimeler: Semîn el-Halebî; ed-Dürrü'l-Masûn**;** Takdim; Tehir; Tefsir.

ABSTRACT

Since the revelation of the Holy Quran, its interpreters of all approaches have paid attention to the phenomenon of forwarding and postponing in the Holy Quran. Al-Samin al-Halabi was one of those who were deeply attentive to and interested in the rhetorical phenomenon in his book *Al-Durr al-Masoon*. This attention was reflected in his interpretation. Al-Samin Al-Halabi explained the rhetorical purposes of the issue of forwarding and delaying in the Arabic language and elaborated on it very well. He also excelled in comparing Quranic verses in which "forwarding and delaying" is used and in highlighting other Quranic verses that talk about the same phenomenon. He made rhetorical preferences in the context of forwarding and delaying, which were useful in deducing new meanings in understanding Quranic verses. This is because the author mastered the art of reasoning, weighting, and deduction. This study delves into the depths of this rhetorical phenomenon and explores the efforts of this exceptional author in studying the Holy Qur'an and its disciplines.
Keywords: Al-Samin Al-Halabi; Al-Durr al-Masoon; Forwarding; Delay; Interpretation.

المقدمة

القرآن الكريم حيّر ببلاغته أمهر المتكلمين، وأَبْهَر بفصاحته أبرع الناطقين، فكان شُغْلَ الدارسين، ومبْحَثَ الباحثين، ومقصد المتميّزين من كل بقاع الأرض، وبكل لغات الدنيا.

والقرآن الكريم كان كتاب هداية وكتاب إرشاد وفي الوقت نفسه كتابًا بلاغيا ساميًا وكان لا بد لفهمه من تفسير نفهم القرآن من خلاله فنشأ علم التفسير عبر العصور وتطور ثم ظهر المشتغلون بعلوم القرآن الذين بحثوا أدق تفاصيل القرآن فعُنُوا بفصاحَتِه وبلاغته وأسلوبه ونظمه وبيانه وبديعه ونحوه وترتيبه ... ومن بين تلك الظواهر التي تستدعي الدراسة وتتطلب التدقيق في أسرارها ظاهرة التقديم والتأخير في القرآن الكريم.

وكان من ضمن ما ذكره البلاغيون في كتب البلاغة هو ظاهرة التقديم والتأخير التي هي ظاهرة بلاغية ونحوية في آن واحد، تتعلق بالبلاغة من جهة جمالية مقصد الكلام، وتتعلق في النحو من جهة الرتبة والصناعة النحوية.

أ- أهمية البحث

إن ظاهرة التقديم والتأخير في اللغة العربية أو في القرآن الكريم لا بد من أن تؤدي إلى تغيير في المعنى حيث إن هذه الظاهرة تسير ضمن خطوات منتظمة من الضوابط والقواعد وبالتالي فمن الضروري التعمّق في دراسة هذه الظاهرة لفهم المعنى المراد الأدق على وجه صحيح، وبذلك تظهر من هذه الدراسة روعة أسلوب القرآن الكريم وقوة بلاغته.

إن التعمق في فهم أهداف التقديم والتأخير البلاغية يمكِّنُنَا من فهم القرآن بشكل أكبر بسبب كثرة ورود التقديم والتأخير فيه. فالأغراض البلاغية تظهر جليا في ثنايا التفاسير اللغوية للقرآن الكريم وكلما قرأنا أكثر في النحو والبلاغة كلما فهمنا القرآن أكثر

ودراسة ظاهرة التقديم والتأخير من خلال رؤية الإمام (السمين الحلبي) لها يبرز لنا مدى انعكاس فهم تلك الظاهرة على العملية التفسيرية وفهم معاني الآيات القرآنية

ب- أهداف البحث

إن الهدف المنشود من هذا البحث هو محاولة معرفة أسرار التقديم والتأخير في القرآن الكريم وذلك من خلال تسليط الضوء على وجهة نظر الإمام السمين الحلبي في تفسيره وتحليله لظاهرة التقديم والتأخير، وهذا يفيدنا في فهم معاني نصوص القرآن بشكل أكبر، بالإضافة إلى تسليط الضوء على موضوع التقديم والتأخير الذي يعتبر واحدًا من أهم دلائل الإعجاز في القرآن.

ت- إشكالية الموضوع

كثيرًا ما تطرح تساؤلات مفادها ما سبب تقديم بعض الكلمات أوالجُمَل وتأخيرها أحيانًا في القرآن الكريم؟ ما هي ظاهرة التقديم والتأخير في القرآن الكريم؟ ما هو سبب تقديم ترتيب العناصر المتعددة في الجملة؟ ماهو أسلوب أو قاعدة التقديم والتأخير في القرآن الكريم؟ كيف يرى الإمام السمين الحلبي التقديم والتأخير في القرآن الكريم؟ كيف يؤثر فهم ظاهرة التقديم والتأخير على العملية التفسيرية للآيات القرآنية؟ ما هي أهم الضوابط التي تبنى عليها ظاهرة التقديم والتأخير؟ والبحث يحاول من خلال التعمق في الدراسة والتحليل والوصف الإجابة على هذه الأسئلة.

ث- منهج البحث

إن هذا البحث الذي يدرس ظاهرة التقديم والتأخير ويبحث عن الفوائد البلاغية من تلك الظاهرة وفق علم النحو والبلاغة ويلقي الضوء على إشارات بلاغية إنما هو بحث ينصب في إطار دراسة ظاهرة التقديم والتأخير بأشكالها المختلفة وهذه الظواهر تدرك وفق قوانين البلاغة وعلم النحو وقواعدهما وسأعمدُ في هذه الدراسة إلى ذلك ملتزمًا بالمنهج الوصفي الذي يبحث في الظواهر فيصفها ويبينها ويكشف غموضها وسأعمد إلى التحليل مستندًا إلى قواعد البلاغة والنحو

أولًا: التقديم والتأخير عند البلاغيين والنحويين والمفسرين

لقد اشتغل علماؤنا القدماء من البلاغيين ومفسري القرآن الكريم في دراسة ظواهر القرآن الكريم اللغوية والنحوية والبلاغية وبيّنوا جماليات هذه الظَّواهر وقسَّموها وبوَّبوها وحلَّلوا ظواهرها.

و"ليس من شك أن ترتيب الكلام اللفظي الذي يتم بوعي وإدراك إنما هو نتاج الترتيب الذهني فإذا خرج الكلام من الأديب كان لترتيبه أثر ظاهر في الحكم على العمل الأدبي"[1] فالبلاغيون قسَّموا في كتبهم البلاغية الظواهر البلاغية وقدَّموا أمثلة من القرآن والشِّعر والنَّثر الجاهلي الذي يُحْتَجُّ به في الاستشهاد، والنحويون قسموا في كتبهم النحوية الظواهر النحوية والشواهد من خلال القرآن الكريم والسنة وأشعار العرب وأقوال الأعراب.

أما المفسرون فكانوا يفسرون القرآن الكريم استنادًا إلى تلك الدراسات البلاغية والنحوية ولا سيّما من اهتم منهم بالجوانب اللغوية، والأدبية كالزمخشري، والرازي، والقرطبي. فهؤلاء حين كانوا يمرُّون في تفسيرهم على ظاهرة بلاغية كظاهرة التقديم والتأخير كانوا يحللونها ويفسرونها وفق قواعد اللغة العربية واستنادًا إلى أقوال علماء النحو والبلاغة، إضافة إلى استنادهم على المنطق والحجج العقلية والاستقراءات الذهنية.

وقد تبيَّن للمفسرين ولدارسي البلاغة أن التقديم له أسرار عجيبة ولطائف كبيرة واهتموا بدراسة أسباب التقديم ولماذا تقدَّمَتْ لفظة أحيانا في مكان وتأخرت في مكان آخر، ولقد فطن البلاغيون إلى عظيم أهمية التقديم وكشفوا النقاب عن أسراره، وقالوا بأن له فوائد جمة. وكذلك فإن النحويين اهتموا بالتقديم اهتمامًا بالغًا من الناحية النحوية. لذا يمكننا تقسيم التقديم وفق تقسيمات بلاغية وتقسيمات نحوية.

ومن بين المفسرين الذين اهتموا باللغة ونحوها وبلاغتها هو السمين الحلبي، فهو لم يقف على الجوانب اللغوية فحسب، بل اهتم أيضًا بالبلاغة وفوائدها وأغراضها والنحو والإعراب وأقوال النحاة المختلفة وما يستنبط منها.

ثانيًا: السمين الحلبي (ت: 756هـ) وتفسيره

أ- اسمه ونسبه وكنيته

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود الحلبي[2] نزيل القاهرة المشهور بلقب (السمين) كان فقيهًا بارعًا في النحو والتفسير وعلم القراءات وتكلم كذلك في علم الأصول، وكان شافعيَّ المذهب خيّرًا ديّنًا[3].

ب- تعريف عام بكتاب الدر المصون

أَلَّفه السمين في حياة شيخه أبي حيان، وانتهى من تأليفه سنة 734هـ، وموضوعه: دراسة القرآن الكريم من حيث إعرابه، وتوجيه قراءاته المتواترة والشاذة، وتفسيره. وذلك من خلال خمسة علوم من علوم اللغة العربية وهي: "علم الإعراب، وعلم التصريف، وعلم اللغة، وعلم المعاني، وعلم البيان"[4].

---

[1] دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة تحليلية: منير محمود المسيري، ص 49.

[2] لم تذكر كتب السير والتراجم والطبقات تاريخ ميلاد السمين الحلبي، لكنهم اتفقوا أنه توفي العام 756 هـ.

[3] ينظر: طبقات الشافعية: الإسنوي، 288/2؛ العقد المذهب في طبقات حملة المذهب: ابن الملقن، ص408؛ غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري، 152/1؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي، 224/4؛ طبقات الشافعية: ابن قاضي شهبة، 18/3؛ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، 402/18؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي، 321/10.

[4] المرجع السابق: 4/1.

ويرى السمين الحلبي أن هذه العلوم مهمة ومرتبطة ببعضها، ولا يمكن دراسة علم منها دون العلوم الأخرى، وذلك حتى يكون المعنى أكثر دقة وتكون الفائدة شاملة والمعرفة كاملة بمعاني نصوص القرآن.

ثالثًا: مفهوم التقديم والتأخير لغة واصطلاحًا

أ. التقديم والتأخير في اللغة

التقديم في اللغة مصدر قدم، جاء في كتاب العين: "قدم: القَدَمُ: ما يطأ عليه الإنسان"[5]، قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ... وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11]، والقَدَمُ أيضاً: "السابقةُ في الأمر"[6]، والقِدَمُ "مصدر القديم من كل شيء...وقَدَمَ فلان قومه أي يكون أمامهم"[7]، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قومه يوم القِيَامَةِ﴾ [هود: 98] بالنتيجة التقديم هو: تحريك شيء للأمام[8].

وأما بالنسبة للتأخير: فهو ضد التقديم، وهو في اللغة العربية مصدر أخَّر "أَخَّرْتُهُ فتأَخَّرَ.. وقد تأخر عنه تأخرًا وتأخرة واحدة"[9]. وفي التنزيل: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34، النحل: 61]. والتأخير: ضد التقديم. ومن أسماء الله الحسنى: الآخر والمؤخر، ومعنى الآخر: "هو الذي لا نهاية له وهو الباقي بعد فناء خلقه كله والمؤخر هو الذي يؤخر الأشياء فيضعها في مواضعها"[10].

ب. التقديم والتأخير اصطلاحًا

التقديم والتأخير عند النحويين: يرى سيبويه (ت: 180هـ) أنَّ أسلوب التقديم والتأخير: "عربيٌّ جيِّد كثير، كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أغنى، وإنْ كانا جميعًا يُهمّانِهم ويَعْنِيانهم"[11].

إذن يمكننا تعريف التقديم والتأخير في النحو أنه: "تغيير مواضع الألفاظ في الجملة تغييرا يخالف الترتيب النحوي المألوف لغرض بلاغي كالقصر وإظهار الاهتمام"[12]

التقديم والتأخير عند البلاغيين:

إن مصطلح التَّقديم والتَّأخير هو: "التّغيير في التّرتيب الطَّبيعيّ لأجزاء الجملة، لغرض بلاغيّ كزيادة الاهتمام، أو القصر، أو التّشويق، أو لضرورة شعريّة"[13]. و"التَّأخير نَقْل الكلمة من مكانها إلى مكان آخر بعدها"[14].

ويقول عبد القاهر الجرجاني: "هو بابٌ كثيرُ الفوائدِ، جَمُّ المحاسن، واسعُ التصرُّف، بعيدُ الغاية. لا يزالُ يفتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفضي بكَ إلى لطيفةٍ. ولا تزالُ ترى شِعراً يروقُك مسمَعُه ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أنْ راقك ولُطف عندك أن قُدِّم فيه شيءٌ وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكانٍ"[15].

ويرى الزركشي أن التقديم والتأخير هو: "أحد أساليب البلاغة فإنهم أتوا به دلالة على تَمَكُّنِهِمْ في الفصاحة وَمَلَكَتِهِمْ في الكلام وانقياده لهم وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق. وقد اختلف في عده من المجاز فمنهم من عده منه لأنه تقديم ما رتبته التأخير كالمفعول وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل نقل كل واحد منهما عن رتبته وحقه. والصحيح أنه ليس منه فإن المجاز نَقْلُ مَا وُضِعَ لَهُ إِلَى مَا لَمْ يُوضَعْ"[16].

ويقولُ ابنُ الأثير عن التقديم والتأخير: "هو ضربان: الأول: يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أُخِّرَ المُقَدَّمُ أو قُدِّمَ المُؤَخَّرُ لتغيَّرَ المعنى. والثاني: يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخر لما تغير المعنى"[17].

وفي الاصطلاح البلاغي الحديث يمكن تعريف التقديم والتأخيرُ بأنه انزياح في مفردات الجملة يؤدي إلى تغيير في تركيبها وعدولٍ عن أصلها لغاية تتبيَّن من خلال السياق، فالتّحوّل في بُنْية الجملة يعطي المفردات المتغيرة طابعًا مميزًا ينبّه السامع لشيء مقصود بعينه.

إذن فالتقديم والتأخير هما ظاهرة نحوية بلاغية وجدت في اللغة لغاية سامية تفيد معنى مخصوصًا وفق سياق الجملة.

رابعًا: أهمية التقديم والتأخير

للتقديم والتأخير أغراض وفوائد كثيرة هي من ركائز اللغة العربية التي تستند إليها لإضفاء الجمال التعبيري من خلال تغيير البنية الترتيبية التركيبية للجملة.

ومن المعلوم أن أساليب اللغة العربية تتوافق مع النحو العربي في التراكيب اللغوية فلكل لفظة رتبة خاصة فإذا حصل انزياح أو اختلاف في أصل الترتيب فسيكون لذلك غاية ومسوّغٌ فرضه ذلك الانزياح وتغيير البُنْيَة المتعارف عليها في النحو. ومعرفة الغاية من التغيير تساعد على فهم أسرار هذا الكلام البليغ.

وسنحاول هنا استقراء أماكن التقديم والتأخير في القرآن الكريم لنفهم كيف تناول السمين الحلبي هذه الظاهرة وكيف حللها، فالسمين الحلبي اهتم كثيرًا بالجوانب البلاغية واللغوية والنحوية في تفسيره، وتعمّق في تأويل أمثلة التقديم والتأخير أكثر من غيره من المفسرين.

---

[5] كتاب العين: الفراهيدي، مادة: (قدم).
[6] الصحاح: الجوهري، مادة: (قدم).
[7] كتاب العين: الفراهيدي، مادة: (قدم).
[8] وجب التنبيه أن كلمة التقديم في اللغة العربية أصبحت تستخدم في سياقات ومعاني مختلفة منها العرض، ومنها تقديم شيء، ومنها حالة التعريف بشخص، ومنها التقديم للأمام.
[9] لسان العرب: ابن منظور، مادة: (أَخَّر).
[10] المرجع السابق: مادة: (أَخَّر).
[11] الكتاب: سيبويه، 34/1.
[12] معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس، ص 116.
[13] معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عمر، 71/1.
[14] المرجع السابق: 71/1.
[15] دلائل الإعجاز: الجرجاني، 106/1.
[16] البرهان في علوم القرآن: الزركشي، 233/3.
[17] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، 172/2.

فالتقديم والتأخير في اللغة هو ناتجٌ عن تغيّر الرّتبة التي تؤدي إلى إضافة معنًى جديد. فمن المهم في هذا الإطار الغوص في الجوانب البلاغية التي نفهمها من الانزياحات البنيوية للتراكيب اللغوية في القرآن حتى نقف على روعة القرآن وجمال أسلوبه وقوة بلاغته، وبذلك نكون أكثر فهمًا للنصوص حيث يغوص الباحث في ثنايا التفاسير اللغوية للقرآن الكريم وكلما تعمقنا أكثر في البلاغة والنحو فهمنا النصوص القرآنية بشكل أوضح.

خامسًا: تجليات ظاهرة التقديم والتأخير على التفسير في كتاب الدر المصون

جدير بالذكر أن السمين الحلبي تكلم عن التقديم والتأخير من جانبين: الجانب الأول هو الجانب البلاغي المعروف حيث يتقدم ما حقه التأخير ويتأخر ما حقه التقديم وهذا النوع له أغراض بلاغية ذكرها البلاغيون من أهمها الاختصاص والاهتمام بالشيء المتقدم. وأما الجانب الثاني: فهو تقديم شيء على شيء تقديمًا معنويًا يفيد إثبات فكرة معينة من خلال ذلك الترتيب في هذا السياق. وأحيانًا يقارن السمين الحلبي بين آيات متشابهة المعنى في موضعين مختلفين. فيقدم القرآن في أحد الموضعين ما يؤخره في موضع ثان. ويأتي دور السمين الحلبي ليفسّر حسب اجتهاده سبب ذلك التقديم والتأخير من الناحية الجمالية والمعنوية.

لقد فهم السمين الحلبي أن التقديم والتأخير له لطائف مهمه جدا تدل على عظمة بيان القرآن الكريم واتساع معانيه وتنوع دلالاته وفهم أيضاً السمين أن التقديم والتأخير له فوائد كثيرة ومحاسن عظيمة.

ولقد أشار السمين الحلبي إلى التقديم والتأخير في الزمن ولماذا قدم الله أحيانا ما هو متأخر في الزمان والإيجاد مبينًا الفوائد البلاغية من ذلك التقديم والتأخير. كما أنه اهتم بالتقديم والتأخير من منحًى نحوي من مثل تقديم المفعول به على الفاعل. مثال ذلك: في قوله تعالى: ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: 47] رأى السمين الحلبي أن تقديم الظرف في هذه الآية سببه إفادة الاختصاص. فالمعنى: ليس فيها غَوْلٌ كما في خُمور الدنيا، وكأنَّ المعنى أنَّ خمرة الآخرة اختصَّتْ بنفي الغَوْلِ عنها بخلافِ غيرِها.

وكان اهتمام السمين الحلبي بالتقديم والتأخير من جانب بلاغي واضحًا في تفسيره، وأحيانا كان يتداخل معه الحديث في الجانبين النحوي والبلاغي في تفسير نفس الآية حينما كان يحلل سبب التقديم وسبب التأخير، وهذا يحدث لأن هناك تداخلًا وتقاطعًا بين البلاغة والنحو. وهو لم يفرّق في تفسيره بين التقديم والتأخير البلاغي والتقديم والتأخير النحوي، فهو لم يذكر هذه الأقسام وإنما كان يذكر التقديم في العموم لأن العلوم اللغوية متداخلة ويصعب الفصل فيها في كثير من الأحيان. وقديمًا لم يكن هناك فصل بين العلوم فاللغوي كان نحويًا والنحوي كان لغويا وكان العلماء يتقنون كل العلوم ومن هؤلاء العلماء السمين الحلبي الذي كان يهتم باستنباط جماليات المعاني وهو ما يجعله متفردًا عن غيره في زيادة التفصيل في الجوانب البلاغية والشروحات وهذا ما لا نجده عند كثير من المفسرين غيره.

ويتضح في إطار حديثه عن التقديم والتأخير أنه لم يكن يعط التقديم والتأخير عناية بوصفه مصطلحًا خاصًا، ولكنه كان يتناولها بوصفها ظاهرة لغوية مهمة تخدم المعنى وفق التغيير الذي ولَّدَه هذا التقديم أو التأخير. ولذلك نجد أنه يعلل تقديم لفظة وتأخير أخرى وفق سرده وشرحه في الكلام بدون التركيز على هذا التقديم كناحية بلاغية أو كمصطلح بلاغي فهو يعلل التقديم وفق ما تقتضيه معاني الآيات؛ فهو لا يذكر نوع التقديم بلاغيًا كان أم نحويًا، ولكنه يسرد تفسيره وتعليله بعفوية وانسيابية من دون أن يركِّز عليها كمصطلح لأنه يهتم بالمعنى أكثر من التأصيل لفكرة أن هذا تقديم، أو تأخير، أو قصر، أو إطناب، أو إيجاز، أو شيءٌ من أبواب البلاغة، وما نجده عند السمين الحلبي اهتمام بلب الفكرة وعمق المعنى.

وركز السمين الحلبي على فكرة مهمة يعلل فيها سبب التقديم والتأخير وهي فكرة الاختصاص التي كان يكررها دائما والاختصاص من أسرار التقديم والتأخير في القرآن الكريم بحسب رأي السمين الحلبي ومن أمثلة ذلك عند قوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: 1]. قال" قوله: ﴿لَهُ الملك﴾: مبتدأٌ وخبرٌ. وقدَّمَ الخبر ليفِيد اختصاصَ المُلْكِ والحمدِ بالله، إذ المُلْكُ والحمدُ لله حقيقةً"[18].

ويبين السمين سر التقديم للفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14]. فيقول:"قُدِّمَتِ الجلالةُ عند قومٍ لإفادةِ الاختصاص. قال الزمخشريُّ: «ولدلالتِه على ذلك قَدَّمَ المعبودَ على فِعْلِ العبادةِ هنا، وأَخَّره في الأول، فالكلامُ أولاً واقعٌ في الفعل نفسِه وإيجادِه، وثانياً فيمن يفعلُ الفعلَ مِنْ أجلِه، فلذلك رَتَّبَ عَليه قولَه: ﴿فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ﴾»"[19].

وقد يجتمع في آية أكثر من غرض من التقديم، ومن ذلك: ما ذكره السمين في بيان غرض تقديم: ﴿بِمَا أُرْسِلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 75] حيث قال: "قوله: ﴿بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ﴾ متعلِّقٌ بـــ «مؤمنون» قُدِّم للاختصاص والاهتمام وللفاصلة"[20].

ومما ركز عليه السمين في موضوع التقديم والتأخير فكرة ترتيب المفردات داخل الآية والغاية البلاغية من ذلك الترتيب. كترتيب الصفات أو الأفعال أو المعطوفات والمسميات وكان يبين الغرض البلاغي لذلك الترتيب ويشرحه. ومن أمثلة ذلك بيان السمين الحلبي لسر الترتيب في الصفات التي ذكرت للمؤمنين في سورة التوبة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112]. فلقد أبرز وبيَّن السمين براعة هذا الترتيب فقال: "وأتى بترتيب هذه الصفاتِ في الذِّكْر على أحسنِ نَظْمٍ وهو ظاهر بالتأمُّل، فإنه قَدَّم التوبةَ أولاً ثم ثَنَّى بالعبادة إلى آخره"[21].

وعند قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159] قال المفسّر السمين: "وقوله: ﴿فاعف عَنْهُمْ﴾ إلى أخره جاء على أحسنِ النسق، وذلك أنه أَمَر أولاً بالعفوِ عنهم فيما يتعلَّقُ بخاصةِ نفسِه، فإذا انتهَوا إلى هذا المقام أُمِرَ أن يَسْتغفِرَ لهم ما بينهم وبين الله تعالى لتنزاحَ عنهم التَّبِعَتان، فلمَّا صاروا إلى هذا أُمِر بأنْ يُشاورَهم في الأمر إذا صاروا خالصين من التَّبِعَتَيْن مُصَفَّيْن منهما"[22].

---

[18] الدر المصون: السمين الحلبي، 347/10.
[19] المرجع السابق: 418/9.
[20] المرجع السابق: 365/5.
[21] المرجع السابق: 130/6.
[22] المرجع السابق: 463/3.

ويبين السمين سر ترتيب هذه الزروع المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۞ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: 11-12]. فيقول: "ذكر أولاً ما يتلذَّذون به من الفواكه، وثانياً الشيءَ الجامعَ بين التلذُّذِ والتغذِّي وهو ثَمَرُ النَخْلِ، وثالثاً ما يَتَغَذَّى به فقط، وهو أعظمُها، لأنه قُوْتُ غالبِ"[23].

ولقد فهم السمين الحلبي أن التقديم له أغراض كثيرة وفوائد منها التشريف والتعظيم والتعجب والتشويق والتبكيت وتعجيل المسرة أو تعجيل المساء ومنها الإيجاز ومنها الاهتمام بالشيء المتقدم أو التشويق وغير ذلك من مسائل ذكرها البلاغيون وذكرها أيضاً بعض المفسرين.

سادسًا: نماذج من أثر التقديم والتأخير على المعنى في كتاب الدر المصون

إن السمين الحلبي يدرك أثر ظاهرة التقديم والتأخير في انزياح المعنى وانحرافه فحين يتقدم اللفظ في القرآن فالله عز وجل يريد من خلال هذا التقديم التنبيه على أمر يفهم من خلال الدراسة البلاغية ويأتي على رأسها الاهتمام باللفظ المتقدم لغاية يفرضها السياق.

فمثلا في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

يقول السمين: "وقَدَّم العبادةَ على الاستعانة لأنها صلة ووسيلة لطلب الحاجة من الله"[24]. وهنا أشار السمين إلى فكرة مهمة وهي أن الاستعانة لا تصح بدون العبادة، فالعبادة ومعرفة الله تأتي أولًا، ثم يمكن للاستعانة بالله أن تكون مكتملة الأركان. وهي إشارة لطيفة من المؤلف تؤكد أن من شروط صحة الاستعانة بالله الاستقامة في العبادة. فأضاف معنى جديدًا في تفسيره لم نكن منتبهين له.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]

يقول السمين: "وقُدِّم المجرورُ للاهتمام به كما قُدِّمَ المُنْفَقُ في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 3] لذلك السبب"[25].

وأصل تركيب هذه الجملة في اللغة العربية ﴿وهم يوقنون بالآخرة﴾ ولكنه قدم الجار والمجرور لأهمية التصديق بيوم القيامة والحساب لأن من أيقن بالآخرة حق اليقين ووضعها أمام ذهنه وفكره بشكل مستمر تتهذب روحه وتسمو نفسه وتحلو أخلاقه ويلتزم بعباداته.

والجميل في تفسير السمين أنه ربط بين التقديم هنا والتقديم في آية أخرى فأتى بتشبيه حتى يقرب التصور عند المتلقي فيزيد الفهم. فجاء بقوله تعالى ﴿ومما رزقناهم ينفقون.﴾ فقال بأن التقديم هنا مثل تقديم المُنْفَق والسبب واحد وهو الاهتمام.

وفي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32].

يقول السمين: "وقَدَّم «العليم» على «الحكيم» لأنه هو المتصلُ به في قولِه: «عَلَّم» وقولِه: «لا عِلْمَ لنا»، فناسَبَ اتِّصالَه به، ولأنَّ الحِكْمَةَ ناشئةٌ عن العِلْمِ وأثرٌ له، وكثيراً ما تُقَدَّمُ صفةُ العِلْم عليها"[26].

فالسمين الحلبي هنا ركّز على جانب المعنى في تقديم لفظ ﴿العليم﴾ على لفظ ﴿الحكيم﴾ وكيف كان للتقديم أثره في المعنى من جهتين

الجهة الأولى: تقديم اسم الله ﴿العليم﴾ ناسب سياق خطاب الملائكة لله حين نفوا عن أنفسهم العلم أمام علم الله وقصروا العلم على الله وهذا ما يناسبه لفظ ﴿العليم﴾ ويناسبه أن يأتي أولًا.

ثم من جهة ثانية: أتى السمين بمعنى إضافي وإشارة أخرى حين وضّح وبيَّن أن الحِكمة ناشئة عن العلم فالحكمة تأتي بعده فلا نجد حكيمًا إلا عليمًا، ولكن يمكن أن نرى أناسًا يمتلكون العلم ولكن يفتقرون إلى الحكمة وهذه لطيفة حسنة وتنبيه دقيق أضاف شيئًا إلى المعنى الذي حين نقرؤه ونمر عليه مرورًا سريعًا لا يمكننا أن نفهم دقائقه ومثل هذا التقديم الحاصل في أسماء الله الحسنى نرى السمين الحلبي يعيد الشرح والتفسير في مكان آخر وفي آية أخرى ويأتي بأسباب أخرى.

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37].

يقول السمين: "وقُدِّم ﴿التَّوَّاب﴾ على ﴿الرَّحِيم﴾ لمناسبةِ «فَتَاب عليه» ولأنه موافقٌ لخَتْم الفواصلِ بالرحيم"[27]

والسمين هنا أتى بإشارتين ولفتتين جميلتين في المعنى؛ ففي تقديم اسم الله ﴿التواب﴾ أولًا مناسبة لسياق الكلام الذي سبقه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وثانيًا فهو أخَّر كلمة ﴿الرَّحِيم﴾ على ﴿التَّوَّاب﴾ لمناسبة توافق الفواصل، فهذه إشارة إضافية ليؤكد على فكرة جمالية التنغيم القرآني التي هي من أساسيات النظام الصوتي في القرآن.

وكذلك نقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 57].

نرى السمين وقف عند تقديم المفعول به ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث أكد على معنى مهم فقال: "قُدِّم المفعولُ إيذاناً باختصاصِ الظلم بهم وأنَّه لا يتعدَّاهم"[28].

وهنا ينبّه السمين على أن التقديم أضاف معنى ظُلمهم لأنفسهم من دون أن يظلمهم غيرهم، وأن هذا الظلم لا يتعداهم، وأصل العبارة ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا يظلمون أنفسهم﴾ ولكن التقديم هنا يفيد المعنى الذي ذكره السمين بالإضافة إلى سبب آخر وهو موافقة الفاصلة.

والاختصاص هنا هو مما يفيده تقديم ما حقه التأخير كما تذكر كتب البلاغة. فالله عز وجل وإن كان قد قدَّر عليهم ما هم فيه من الضَّلال والانحراف والزيغ والكفر وظلمهم لأنفسهم، ولكنَّ هذا الظلم لم يكن من جهة الله تعالى. فالله عز وجل لم يظلمهم، بل هم الذين اختاروا أن يظلموا أنفسهم، فالتقديم هنا أفاد هذا المعنى الدقيق.

---

[23] المرجع السابق: 158/10.
[24] المرجع السابق: 61/1.
[25] المرجع السابق: 100/1.
[26] المرجع السابق: 267/1.
[27] المرجع السابق: 296/1.
[28] المرجع السابق: 371/1.

ويتوضح تأثير ظاهرة التقديم على المعنى في تفسير السمين لقوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]. حيث يقول السمين: "و﴿فريقاً﴾ مفعولٌ مقدَّم قُدِّم لتتفقَ رؤوسَ الآي.... وقَدَّم التكذيبَ لأنه أولُ ما يفعلونه من الشرّ"[29]. فالسمين من خلال هذا القول نبَّه على أن التقديم هنا أفاد بخطورة التكذيب ثم الكذب على الناس من خلال العمل على تغيير الحقائق ونفي الرسالات ثم تكذيب الأنبياء. فالكفار كذَّبوا الأنبياء أولًا ثم كذَبُوا على أتباعهم، ومن هنا نفهم أن الكذب خطير جدًا ويؤدي إلى نتائج وخيمة وعظيمة، ويأتي القتل كنتيجة محتملة لقبيحة التكذيب والكذب، لذا فالمؤمن -كما نعلم- لا يكذب وهذا المعنى المراد هو الذي أضافه السمين.

إذن فالتقديم والتأخير له تأثير مباشر على المعنى، وأحيانًا نجد في القرآن الكريم الجملة نفسها، ولكن تقدّمت كلمة فيها في موطن وتأخَّرَتْ في موطن آخر، ويكون للتقديم في هذا المكان سببه المختلف عن تأخيره في مكان آخر وذلك من مثل:

قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 126].

وقوله في الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 10]

فلو نظرنا إلى الجملة: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ في سورة آل عمران فهي عبارة عن أربع كلمات ونرى الترتيب قد اختلف في سورة الأنفال فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وعلل المفسّر السمين سبب تأخير (به) في سورة آل عمران لأنه أتبَعَ الخطابَ الخطاب فقال: "وفي هذه الآية قال: «لكم» وتركها في سورة الأنفال لأن تيك مختصرُ هذه، وكأنَّ الإطناب هنا أَوْلى، لأن القصة مُكَمِّلةٌ هنا فناسب إيناسُهم بالخطابِ المواجَهِ. وأخَّر هنا «به» وقَدَّم في سورة الأنفال؛ لأنَّ الخطابَ هنا موجودٌ في «لكم» فَأَتْبَعَ الخطابَ الخطابَ"[30].

ففي سورة آل عمران جاء الجرار والمجرور (لكم) في نهاية الجملة الأولى، فناسبها أن يأتي الجار والمجرور (به) في نهاية الجملة الثانية. أما في سورة الأنفال فحذف (لكم) لغاية بلاغية هي (الإيجاز). ونرى أنه قدّم (به) في سورة الأنفال، والتقديم كان لغاية التنبيه والاهتمام بالشيء المتقدِّمِ وهو الجار والمجرور (به). وهنا يقصد المعجزة الكبيرة التي هي إمداد الملائكة وقتالهم مع المؤمنين، فالذين قتلتهم الملائكة في تلك المعركة كانوا مميزين قال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12].

والسمين الحلبي يرى أنَّ التقديم أحيانًا يغيّر في المعنى ويضيف شيئًا جديدًا. يتجلى ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60]. حيث يقول السمين: "وقَدَّم التوفِّيَ بالليل لأنه أبلغ في المِنَّة عليهم، ولا سيما عند مَنْ يَخُصُّ الجَرْحَ بكَسْب الشر دون الخير"[31].

فالسمين يرى أن الله عزَّ وجلَّ حين يذكر نعمة النوم وبأن الله يتوفى العبد أثناء النوم ويقبض روحه ثم يعيدها وهو يعلم ذنوبه التي اجترحها في النهار وكأن الله عزَّ وجلَّ يشير حين قدم ﴿يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ على ذكره للذنوب إلى عظيم امتنانه على خلقه وتسامحه معهم، فالله عزَّ وجلَّ ينبّه العبد على ترك الذنوب بطريقة غير مباشرة من خلال تذكيره بأن الله يقبض روحه ويتوفاه فالأجدى والأجدر له أن يترك الذنوب ويعلم نعم الله عليه وهذا هو المعنى الذي أشار إليه السمين باختصار.

ومن الأمثلة التي أوردها السمين والتي يظهر فيها أثر التقديم في المعنى جليًا واضحًا تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]. حيث يقول السمين: "وقُدِّم الوصف بالإنزال لأن الكلام مع منكري أن الله ينزِّل على البشر كتاباً ويرسله رسولاً، وأمَّا وصفُه بالبركة فهو أمر متراخٍ عنهم"[32].

هنا أراد السمين أن يعلل سبب تقديم الإنزال، فنظر في الآية فرأى أنها تخاطب المنكرين الجاحدين وهذا الخطاب للمنكرين يختلف عن خطاب المسلمين فالمنكرين لا يهمهم أن القرآن فيه بركة أو ليس فيه بركة، فلذلك أخّر (البركة) وقدَّم (الإنزال) الذي هو في هذا الخطاب وهذا السياق هو الأهم بالنسبة لهؤلاء الجاحدين المنكرين وهذا مم انتبه إليه السمين.

والتقديم أحيانًا يضيف معنى جديدًا كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: 17]. يقول السمين: "﴿وَفِي النَّارِ﴾ متعلقٌ بالخبر، وقُدِّم للاهتمام به، ولأجل الفاصلة"[33].

فالنار حين قُدِّمَت أضافت معنًى جديدًا، وقد ذكر السمين أنها قُدِّمت للاهتمام بها، ومعنى الاهتمام بها هنا أن الله عز وجل يفيد التنبيه إلى خطورة النار؛ فالمعنى الجديد الذي يضيف تقديم هذه الكلمة هو زيادة التخويف والترهيب.

وحتى نفهم فكرة التقديم البلاغي هنا ننظر إلى قولنا: (وهم خالدون في النار) ولو قارنّاها بالآية ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يتَّضح لسامع الآية الفرق الكبير بين المعنيين؛ فالله عز وجل أتى بذكر النار مباشرة قبل ذكر الخلود من أجل الصدمة الفورية والتبشير الفوري بالنار لهؤلاء الكفرة، وهذا أبلغ في التخويف والترهيب.

وأحيانًا يكون تقديم الضمير (أنت) مفيدًا لتأكيد غاية بلاغية، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: 19]. يقول السمين الحلبي: "وقُدِّم فيها الضميرُ إشعاراً بأنك لست قادراً على إنقاذِه إنَّما القادرُ عليه اللَّهُ وحدَه"[34].

فالتقديم يفيد أن النبي عليه الصلاة والسلام بالرَّغم من عِظَمِ قدره ومكانته، ولكنه لا يستطيع إنقاذ أحد من النار، ولو كان يستطيع أن ينقذ أحدًا من النار لأنقذ عمُّه أبو طالب الذي كان يحبّه. فهو لم يقل (فتنقذ أنت أحدًا من النار) وإنما أتى بالضمير (أنت) في البداية للتأكيد على أن الله وحده هو الذي يدخل النار أو ينقذ منها.

وأحيانًا يُقدَّمُ الجار والمجرور في موطن ولا يقدمان في موطن آخر في سياق قريب ومتشابه لغاية بلاغية، وذلك من مثل قوله

---

[29] المرجع السابق: 500/1.
[30] المرجع السابق: 390/3.
[31] المرجع السابق: 664/4.
[32] المرجع السابق: 229/5.
[33] المرجع السابق: 30/6.
[34] المرجع السابق: 420/9.

تعالى:

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: 29]. يقول السمين: "قوله: ﴿آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾: تقدَّم لِمَ أُخِّر متعلَّقُ الإيمانِ، وقُدِّمَ مُتَعَلَّقُ التوكلِ؟ وأنَّ التقديمَ يُفيدُ الاختصاصَ﴾[35]. وقد أورد في مكان آخر تحليله: حيث يقول: "وقد أبدى أهلُ البيانِ هذا في قوله: ﴿آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: 29] فقالوا: لو قَدَّم «به» لأَوْهَمَ الاختصاصَ بالإيمان بالله وحدَه دونَ ملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخر، وهذا بعينِه جارٍ هنا. والجوابُ: أنَّ الإيمانَ بغيرِهِ معلومٌ فانصَبَّ الغرضُ إلى الإيمانِ بهذا"[36].

وهنا أجاد السمين وأحسن بهذا التحليل فإن الله عز وجل قَدَّمَ الجار والمجرور (عَلَيْهِ) على الفعل (تَوَكَّلْنَا) ليفيد أن التوكّل لا يكون إلا على الله، أما مسألة الإيمان فقد أخَّر (به) ولم يقدّمها لأنّنا نؤمن بالله ونؤمن بالملائكة ونؤمن بالرسل، فتقدُّم ما حقّه التأخير يفيد القصر والتخصيص، فلذلك قدَّم هنا وأخَّر هناك.

ويعلِّقُ السمين الحلبي على قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: 151]، فيقول: "وقُدِّم المجرورُ على المفعول به اهتماماً بذكر المحلِّ قبل ذِكْرِ الحالِّ"[37].

وهنا التقديم بلاغي؛ فقد قُدِّم الجار والمجرور ﴿فِي قُلُوبِ﴾ على ﴿الرُّعْبَ﴾. وهذا التقديم فيه بشارة للمؤمنين؛ وذلك حين بشَّرهم بأن قلوب الأعداء من الكفار ستكون خائفة وجلة، وهذا يجعلهم ضعفاء مضطربين، ولذلك قدّم محل إلقاء الرعب ﴿القلوب﴾، والتقديم هنا أفاد الاهتمام بالشيء المتقدِّم والتركيز عليه.

سابعًا: ترجيحات السمين في ظاهرة التقديم والتأخير

من أمثلة الترجيحات التي جاءت في سياق التقديم والتأخير قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: 136]. يقول السمين: "وقُدِّم المنزَّلُ إلينا في الذِّكْرِ وإنْ كان متأخراً في الإنزال تشريفاً له"[38].

فقد رأى السمين أن سبب تقديم القرآن في الذكر على الكتب السماوية الأخرى برغم أن القرآن قد نزل بعدها هو تشريف القرآن؛ لأنه من المعلوم أن القرآن هو أشرف الكتب السماوية وأعلاها منزلة، فالترجيح هنا للقرآن الكريم لأنه لم يطرأ عليه التحريف أو التبديل وهو معجزة خالدة ورسالة باقية لكل العالمين.

قوله تعالى في سورة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]. عند تفسيره لهذه الآية يقول السمين: "وقَدَّمَ نفيَ العقلِ على نفيِ الهدايةِ؛ لأنه تصدرُ عنه جميعُ التصرفاتِ"[39].

فكما هو معلوم العقل هو من الضروريات الخمس، وهو مناط التكليف وبغيابه يسقط التكليف، لذلك كان تقديم العقل في الآية مناسبًا للمعنى، فرؤية السمين وتحليله متوافقان مع المنطق السليم والأمور البديهة. والتقديم الحاصل في هذه الآية ليس تقديمًا بلاغيًا أي ليس تقديم ما حقه التأخير ولكن تقديمًا ترتيبيًا في سياق الكلام.

ومثله قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: 177]. حيث يقول السمين: "قوله: ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾... قُدِّم للاهتمام"[40]. لا شك أن الأقربون أولى بالمعروف؛ لذلك قدم الله عز وجل ذكرهم في هذه الآية وذلك حتى يهتم المسلم بقرابته، وهناك دلالات وحِكم كثيرة لتقديم إكرام الأقرباء؛ منها حق الرحم، ومنها أن المرء ينشر الألفة والمحبة بين أقربائه فيأمن بغضهم وحسدهم وأذاهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]. يقول السمين: "والظاهرُ أنَّ جملةَ ﴿متى نَصْرُ الله﴾ من قولِ المؤمنينَ، وجملةَ ﴿ألا إنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ﴾ من قولِ الرسولِ، فَنُسِبَ القولُ إلى الجميعِ إجمالاً، ودلالةُ الحالِ مبيّنَةٌ للتفصيلِ المذكور.... والتقديرُ: حتى يقولَ الذين آمنوا (متى نَصْرُ الله) فيقولُ الرسولُ «ألا إنَّ»، فَقُدِّمَ الرسولُ لمكانَتِهِ، وقُدِّم المؤمنون لتقدُّمِهم في الزمان"[41].

وهذا التفسير فيه لطيفة بديعة حيث إن القول ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ هو من كلام المؤمنين، ولكنَّ القرآن قدَّم لفظة ﴿الرَّسُول﴾ لعلو قدره، فاختلف ترتيب الكلام. وأصل الكلام في ترتيبه بحسب تفسير السمين: (حتى يقول الذين آمنوا والرسول متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب). ولفهم أبعاد التقديم والتأخير الحاصل في الآية يحتاج المفسر إلى قلب عقول عميق الفهم حتى يفهم أصل ترتيب الكلام، وهذا ما وجدناه هنا عند السمين، حيث أعاد الكلام إلى أصله وفَهِمَ المراد. فلا يمكن للرسول أن يقول: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ إذ فيه شيء من القُنوط والتَّذمُّر، وإن كانت ﴿مَتَى﴾ في الجملة لم تأت للاستفهام، بل جاءت للاستبطاء أي الشكوى من تأخر النصر.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: 233].

حول هذه الآية يقول السمين: "وقدَّمَ ذِكْرَ عدم مُضَارَّةِ الوالدة مراعاةً لِمَا تقدَّم من الجملتين، إذ قد بدأ بحكمِ الوالداتِ وثَنَّى بحكمِ الوالدِ"[42].

إذن فالتقديم الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ ناسب ابتداء الآية بقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ...﴾

وهناك فائدة أخرى لم يتطرَّق إليها السمين؛ وهي التأكيد على أهمية المرأة وأهمية أداء حقوقها حتى لا يُنْتَقَصَ من حقها.

في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17].

---

[35] المرجع السابق: 395/10.
[36] المرجع السابق: 685/8.
[37] المرجع السابق: 434/3.
[38] المرجع السابق: 138/2.
[39] المرجع السابق: 228/2.
[40] المرجع السابق: 248/2.
[41] المرجع السابق: 383/2.
[42] المرجع السابق: 471/2.

يقول السمين: "وقدَّم تبارك وتعالى مَسَّ الضرِّ على مسِّ الخير لمناسبة اتصال مسِّ الضر بما قبله من الترهيب المدلول عليه بقوله: إن أخاف"[43].

فالسمين يؤكد أن الله عز وجل يذكر مسَّ الضر والابتلاء والامتحان على مسِّ الخير والنِّعمة، وقد رأى أن تقديم مسّ الضُّرّ يناسب معنى الكلام الذي قبله ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: 15].

فالله عز وجل في الآية السابقة ذكر التخويف من العذاب وهذا يناسبه أن تبتدأ صدر الآية بـــــذكر مَسِّ الضُّرّ. وتعليل السمين التقديم الحاصل هنا موفَّقٌ لأنه أتى بتعليق صحيح ودقيق ومقنع، وهذا تقديم معنوي.

ومن جميل بلاغة التقديم الذي فيه ترجيح بليغ يخدم المعنى وفق سياق الآيات قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: 92]، وقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: 50].

يقول السمين: "وقَدَّم وَصْفَه بالإنزال على وَصْفِه بالبركة بخلاف قوله: ﴿وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: 50] قالوا: لأن الأهمَّ هنا وصفُه بالإنزال إذ جاء عقيب إنكارهم أن يُنَزِّل الله على بشر مِنْ شيء بخلاف هناك، ووقعت الصفة الأولى جملةً فعلية، لأن الإنزال يتجدَّد وقتاً فوقتاً والثانية اسماً صريحاً، لأنَّ الاسمَ يدلُّ على الثبوت والاستقرار، وهو مقصود هنا أي: بركته ثابتة مستقرة"[44].

فالسمين ذكر في آية الأنعام تقديمًا معنويًّا حيث قدّم الإنزال ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ على البركة ﴿مُبَارَكٌ﴾ وعلَّل ذلك بالكلام السابق للآية حيث كان هناك إنكار من قِبَلِ الكافرينَ لمسألة إنزال الكتب على الأنبياء، فكانت الآية السابقة لها قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ [الأنعام: 91]. فكان هذا الإنكار يناسبه تقديم ذكر الكتاب المنزل لدحض كلام الكفار.

أما في سورة الأنبياء فلم يسبق الكلام إنكار. وهذا من القياسات الحسنة والترجيحات المناسبة التي تتوافق مع سياقات الآيات أحسن في شرحها السمين الحلبي.

وأحيانا يكون هناك في القرآن متضادات متلاحقة كان فيها ترجيحات متناسبة ومتوافقة في أكثر من آية وفق الترجيح الأول وما يتبعه من ترجيح آخر تابع له في المعنى ومتصل به. وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ [سورة فاطر: 19-21]. حول هذه الآيات يقول السمين: "وقَدَّم الأعمى لأنَّ البصيرَ فاصلةٌ فَحَسُنَ تأخيره، ولمَّا تقدَّم الأعمى في الذكر ناسَبَ تقديمَ ما هو فيه، فلذلك قُدِّمَتِ الظلمةُ على النور، ولأنَّ النورَ فاصلةٌ، ثم ذَكَر ما لكلٍّ منهما فللمؤمنِ الظلُّ وللكافرِ الحَرورُ، وأخّر الحرورَ لأجلِ الفاصلةِ كما تقدَّم"[45].

وهذا كلام حسن وتفسير صحيح وتحليل جيد، وواضح أن القرآن عمل تقابلات متوافقة فيما بينها، فالأعمى يوافق الظلمات، والبصير يوافق النور، فجاءت الألفاظ مناسبة لمقابلاتها.

ومن الإشارات الجميلة والتوجيهات التي تستنبط من خصائص التقديم البلاغي ما ورد في تفسير السمين لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: 2] حيث قال: "وقدَّم المفعولَ على الفعل لإفادةِ الخصوصيةِ، أي: يَسْتَوْفون على الناس خاصةً، فأمَّا أنفسُهم فَيَسْتَوْفون لها"[46].

فالسمين فهِمَ من تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ على الفعل ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ معنىً مستوحى من هذا التقديم؛ وهو ما أورده في الجملة التالية: "فأمَّا أنفسُهم فَيَسْتَوْفون لها". فكلمة الناس هنا تفيد العموم، فهم يتعاملون مع الناس لتحصيل حقوقهم كاملة إذا كانوا يريدون شراء بضاعة، ولكن إذا كانوا يريدون أن يبيعوا بضاعة فإنهم لا يستوفون إذا كانوا هم البائعين، بمعنى أنهم يسرقون ويغشون غيرهم.

ثامنًا: تقييم جهود السمين فيما يتعلق بالتقديم والتأخير

تتجلى الجوانب الإيجابية في ترجيحات السمين في سياقات التقديم والتأخير في استنباطه معاني جديدة تُفْهم من خلال الغوص في معاني الألفاظ والكلمات والعبارات، فنراه فيما يخص المتراجحات يتقن فن التعليل والترجيح بين أمرين أحدهما مقدَّم على الثاني. فنراه يحلل في الآية ويفسرها ويفصل الكلام في دقائقها التي يمكن أن نسميها في البلاغة (معنى المعنى) أو (ما وراء المعنى)، وهو ما ذكره البلاغيون في كتب البلاغة وفق بحث التقديم والتأخير وتوجيهاته، ويأتي على رأسها الاختصاص والاهتمام بالشيء المتقدم ورعاية الفاصلة...ويأتي دور السمين الحلبي ليعلل سبب تقديم هذا الأمر في موضع تارة وتأخيره تارة في موضع آخر، وتعليله يأتي وفق قواعد اللغة وإرشادات الآيات وتوجيهاتها.

من أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]. حيث يقول السمين: "وإنما قُدِّم متعلَّق الشهادة آخراً وقُدِّم أولاً لوجهين، أحدُهما - وهو ما ذكره الزمخشري - أن الغرضَ في الأولِ إثباتُ شهادتِهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكونِ الرسولِ شهيداً عليهم، والثاني: أن «شهيداً» أَشْبَهُ بالفواصلِ والمقاطعِ من «عليكم» فكان قولُه «شهيداً» تمامَ الجملةِ ومقطعَها دون «عليكم»"[47].

وأصل تركيب الآية (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيدًا عليكم) فالجار والمجرور متعلقان بالصفة المشبهة (شهيد) فقدّم الجار والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على متعلَّقِهِ ﴿شَهِيدًا﴾ وذلك لأكثر من سبب منها موافقة الفاصلة القرآنية.

فنرى جمالية غوص السمين في لفظة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ التي تفيد التركيز على أهمية الأمة المحمدية، والقرآن حين ذكر الناس عمومًا ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ أخَّر ولم يقدم فقال: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وجمالية تحليله تظهر في عمق تفسيره عندما يذكر اختصاص شهادة الأمة المحمدية على الأمم من جهة ومن جهة أخرى أن الرسول هو الشهيد عليهم.

---

[43] المرجع السابق: 566/4.
[44] المرجع السابق: 37/5.
[45] المرجع السابق: 225/9.
[46] المرجع السابق: 716/10.
[47] المرجع السابق: 152/2.

ومن الجوانب الإيجابية للتقديم في تفسير السمين الحلبي: تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 183]. حيث يقول السمين: "قُدِّم ﴿عليكم﴾ وإنْ كان الأصلُ تأخيرها عنه لأنَّ البداءة بذكرِ المكتوبِ عليه آكدُ مِنْ ذِكْرِ المكتوبِ لتعلُّق الكتب بِمَنْ يؤدِّي"[48]. فالأصل في تركيب كلمات الآية أن يقال: (كتب الصيام عليكم) ولكن الله عز وجل عندما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ فهو يؤكد على أن الصيام فريضة كتبت على المسلمين وحدهم دون غيرهم بدليل مقدمة الآية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فتحليل السمين حول هذه الآية صائبٌ حسنٌ.

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 233]. يقول السمين: "وقُدِّم الرزْقُ على الكسوةِ لأنه الأهمُّ في بقاءِ الحياةِ ولتكرره كلَّ يومٍ"[49].

وهذه فائدة لطيفة في الترجيح أفادها التقديم، فالبقاء على قيد الحياة أَوْلى من اللباس، وما نلحظه هنا أيضًا جمال الاستنباط عند السمين؛ إذ إنه استنبط أن الرزق من أسباب البقاء ففهِمَ الرزق بأنه المال والطعام بسبب التقديم، أو إن المال علّة البقاء. وهذا التفسير من الجوانب الإيجابية التي يشكر عليها السمين وذلك بسبب إيحاءات الدلالة والإشارات التي تستنبط من تلك الألفاظ.

وعند تفسيره لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 55]. يقول السمين: "... في هذا الترتيبَ معنًى حسنٌ جداً، وذلك أنه تعالى بَشَّره أولاً بأنه متوفّيه ومتولِّي أمره فليس للكفار المتوعّدين له بالقتل عليه سلطانٌ ولا سبيلٌ، ثم بَشَّره ثانياً بأنه رافعُه إليه أي: سمائهِ محلِّ أنبيائِهِ وملائكتِهِ ومحلِّ عبادتِهِ ليسكنَ فيها ويعبُدَ ربَّه مع عابِدِيه، ثم ثالثاً بتطهيرِهِ من أَوْضارِ الكفرةِ وأذاهم وما رَموه به، ثم رابعاً برفعهِ تابعيه على مَنْ خالفهم لِيتِمَّ بذلك سرورُه، ويكملَ فرحُهُ، وقَدَّم البِشارَةَ بما يتعلَّقُ بنفسِهِ على البِشارة بما يتعلَّق بغيره؛ لأنَّ الإنسانَ بنفسِهِ أَهَمُّ وبشأنها أَعْنى، ﴿قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ [التحريم: 6] «ابدَأْ بِنَفْسِكَ ثم بِمَنْ تَعول»"[50].

وتفسير السمين هنا يؤكد لنا على كبير سعة دقة ملاحظة السمين وبُعد نظره، فحينما كان المسيح عيسى عليه السلام في محنته المعروفة، وكان يضرع إلى الله ويسأل الله النجاة، استجاب الله له وأنقذه من كيد أعدائه اليهود الذين كانوا ينوون قتله، فجاءت الاستجابة من الله لدعائه ولم تكن البشارة من الله عز وجل بشارة واحدة، بل كانت أربع بشارات. البشارتان الأوليان تتعلقان بالعلاقة الخاصة بين الله وبين المسيح فقد بشره بأنه سيقربه منه ويرفعه إليه، وجاءت البشارة الثالثة وهي خاصة به فهي تبشره بأن الله لن يجعل للكافرين عليه سبيلًا، ثم جاءت البشارة الرابعة وهي بشارة خاصة لأتباع المسيح بأنهم سيصبحون أعلى شأنًا وقدرًا وقيمةً من اليهود الذين كفروا بدين اليهودية، ويؤكد هذا قول الطبري في تفسير الآية: "وجاعل الذين اتبعوك من النصارى فوق اليهود. قال ابن زيد في قول الله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: الذين كفروا من بني إسرائيل ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾، قال: الذين آمنوا به من بني إسرائيل وغيرهم ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، النصارى فوقَ اليهود إلى يوم القيامة. قال: فليس بلدٌ فيه أحدٌ من النصارى، إلا وهم فوق يهودَ، في شرقٍ ولا غرب، هم في البلدان كلِّها مستذلون"[51]. وهذا ما نجده في هذا الزمان من أن شأن النصارى أعلى من شأن اليهود من حيث امتلاك زمام الأمور وقيادة العالم. وفي هذه الآية لم يشر إلى أن النصارى على حق إلى يوم القيامة، ولكنه أشار إلى أنهم فوق اليهود إلى يوم القيامة، وهذه من الآيات التي فيها إعجاز قرآني من خلال الإخبار عن المغيبات المستقبلية. فالتقديم الحاصل كانَ بديعًا هنا، وتحليل السمين كان دقيقًا وبليغًا وصائبًا.

ومن الإيجابيات عند السمين الحلبي أنه يهتم بالمترادفات فحين فرّق بينها استطاع أن يفهم الغاية من التقديم والحكمة منه ولنقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 151].

يقول السمين: "وقُدِّم المأوى وهو المكان الذي يَأْوي إليه الإنسان على المَثْوى وهو مكانُ الإقامةِ، لأنه على الترتيبِ الوجودي يأوي ثم يَثْوي، ولا يلزم من المأوى الإقامةُ، بخلافِ عَكْسِه"[52].

فالمأوى والمثوى كلمتان مترادفتان، والقرآن الكريم قدّم هنا (المأوى) على (المثوى) والتقديم هنا تقديم معنوي وليس تقديمًا بلاغيًا، والآية الكريمة تبيّن أنهم مُقْدِمُونَ على النار مباشرة قبل أن تكون النار مكان إقامتهم، وكأنه يبشرهم بالنار المباشرة والسريعة فور انتقالهم إلى الآخرة بطريقة السخرية. فالسمين الحلبي ينتبه إلى الفروقات في المترادفات وهذا مما يشكر له.

يقول السمين الحلبي تعقيبًا على قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 74] ما يلي: "وقدَّم قولَه: ﴿فَيُقْتَلْ﴾ لأنها درجةُ شهادة وهي أعظمُ من غيرها، وثَنَّى بالغَلَبة وهي تشمل نوعين: قتلَ أعداءِ الله والظفرَ بالغنيمة، والأولى أعظمُ من الثانية"[53].

هنا يتحدث السمين الحلبي عن لطائف تقديم ﴿يُقْتَلْ﴾ على ﴿يَغْلِبْ﴾ ومن الإيجابيات ذكر جمالية هذه التفاصيل، فالشهادة ربّما يخاف منها الإنسان أو لا يريدها بسبب حبه للحياة، ولكن الله عز وجل قدّمها، فالمتلقي والقارئ ربما ينصدم أو يُدْهَش من هذا التقديم، فإذا قلنا لشخص مُقْدِم على معركة أنك ستستشهد فربما يصاب بالإحباط، فالنفس تطلب النصر والغلبة، ولكن الله عز وجل يقرّر هنا في هذا التقديم فائدة وحكمة بليغة تنبؤنا أن درجة الشهادة أعظم وأعلى قدرًا وشأنًا، وإلى هذا المعنى يشير السمين حين ذكر أنه "ثَنَّى بالغَلَبة" وأن الشهادة أعظم من الفوز على الصعيد الفردي لأن للشهيد درجة لا يُعْلى عليها.

ولنتفكر في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 54].

يقول السمين عند تفسيره لهذه الآية: "وقَدَّم الوصفَ بالمحبة منهم ولهم على وصفِهم بأذلَّة وأَعِزّة لأنهما ناشِئتان عن المحبتين، وقَدَّم وصفَهم المتعلِّق بالمؤمنين على وصْفِهم المتعلق بالكافرين لأنه آكدُ وألزمُ منه، ولشرفِ المؤمنِ أيضاً"[54].

---

[48] المرجع السابق: 266/2.
[49] المرجع السابق: 470/2.
[50] المرجع السابق: 216/3.
[51] تفسير الطبري: 463/6.
[52] الدر المصون: السمين الحلبي، 436/3.
[53] المرجع السابق: 36/4.
[54] المرجع السابق: 310/4.

وهذه الآية الكريمة تذكر صفات المحب لله وهي أربع صفات، ولقد انتبه السمين إلى فكرة مهمة؛ وهي أن الذلة والعزة عند المؤمن تأتي نتيجة الحب الإلهي فقدَّم المحبة على ثمراتها. فمن تعلق قلبه بالله حُبًا؛ فإنه يحب لله ويبغض في الله؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «فَإِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ، الْحَبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»[55].

وهنا أحسن السّمين إذ نبّه على تقديم القرآن الكريم صفة (التواضع للمؤمنين) على صفة (العزّة أمام الكافرين) وهذا تقديم بديع جميل من القرآن الكريم، فتقديم المؤمنين هو صحيح لأن المؤمن أشرف من الكافر، وتواضع المسلم مع أخيه المسلم أهمّ من إظهار الكبرياء والعزة أمام الكافرين. لأن المسلم قد يُظْهِرُ أمام الكافر سماحة مرة أو تساهلًا لغرضٍ دعوي، ولكن لا يمكن ولا يقبل من مسلم أن يظهر العزة أو التكبر أمام أخيه المسلم بأي حالة وبأي ظرف كان.

وأحيانًا يستنبط السمين معانيَ دقيقة لا تخطر على البال يستشفّها من خلال السياق، وذلك من مثل تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ [الأنعام: 52].

حيث يقول السمين: "وقدَّم خطابَه عليه السلام في الجملتين تشريفاً له، ولو جاءت الجملة الثانية على نَمَط الأولى لكان التركيب: «وما عليهم مِنْ حسابك من شيء» فتقدَّم المجرور ب «على» كما قَدَّمه في الأولى، لكنه عَدَل عن ذلك لما تقدم"[56].

وهو هنا ذكر أن تقديم ﴿عَلَيْكَ﴾ و﴿حِسَابِكَ﴾ في الخطاب غايته تشريف الرسول ﷺ، وهذه لفتة طيبة حسنة صحيحة. وهنا يظهر جمال التقديم في اللغة، حيث أن مخاطبة الشخص المهم بأسلوب راقٍ تقتضي الاهتمام بــه في الخطاب فتقدم الكلمات التي تهتم به من باب التشريف ولا سيما المخاطب هنا هو النبي عليه الصلاة والسلام. والسمين فعل شيئًا مهما حتى يفهم المُخَاطَبُ الفرق، جاء بالكلام المعكوس ووضعه ليفهم السامع الفرق بين الجملتين، وهذا مما يشكر له.

وحين يكون في التقديم إشكالًا من الناحية البلاغية المعنوية، فإننا نجد أن السمين يُبَيّن وجه الإشكال ويوضح اللبس، ويزيل الإشكال، وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: 52]. حيث يقول السمين: "قالوا: التقديمُ يُفيد الاختصاصَ وهنا لا يتأتَّى ذلك، لأنهم لو خَصُّوا إيمانَهم بهذا الكتابِ فقط لَزِمَ كفرُهم بما عَداه، وهو عكسُ المرادِ والجوابُ: أنَّ الإيمانَ بغيرِهِ معلومٌ فانصَبَّ الغرضُ إلى الإيمانِ بهذا"[57].

فالسمين أحسن في هذا التحليل وأكد أن الذي سينظر إلى الفائدة البلاغية المباشرة فإنه سيخطئ لأن تقديم ﴿به﴾ هنا من الناحية البلاغية يفيد الإيمان به وحده وعدم الإيمان بما عداه. فالمعنى الظاهر لهذه الآية وفق توجيهات البلاغة لا يتوافق مع المعنى المراد. والمعنى المراد هنا هو اختصاص الإيمان بالله والتأكيد عليه. ومعلوم أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالملائكة والكتب والرسل وأن الإيمان بالله يعني الإيمان بما أمرَنا أن نؤمن به كما أبلغنا رسوله عليه الصلاة والسلام.

ومما يشكر للسمين أنه يأتي بآية فيها تقديم وتأخير ويقارنها بآية متشابهة أخرى، ولكن في الآية الثانية عكست الكلمات فتأخر المتقدم وتقدم المتأخر وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4].

حيث قال السمين: "قوله: ﴿والروح﴾: مِنْ بابِ عطفِ الخاصّ على العامّ، إنْ أُريد بالروح جبريلُ عليه السلام، أَو مَلَكٌ آخرُ مِنْ جِنسِهم، وأُخِّر هنا، وقُدِّم في قولِه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً﴾ [النبأ: 38] لأنَّ المَقَامَ هنا يَقْتَضي تَقَدُّمَ الجمع على الواحدِ من حيث إنه مَقامُ تَخْويفٍ وتهويلٍ..."[58].

ومن الأمثلة على قوته في فهم المعاني الخفية والبعيدة للتقديم والتأخير نقرأ تفسيره لهاتين الآيتين:

1. قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: 40].
2. وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8].

يقول السمين: "وقدَّم في هذه السورة حالَ نفسه، وأخَّر حالَ امرأته، وفي مريم عَكَس، فقيل: صدرُ الآيات في مريم مطابِقٌ لهذا التركيبِ لأنه قَدَّمَ وَهْنَ عظمِه واشتعالَ شَيْبِه وخِيفَةَ مواليهِ من ورائه، وقال: (وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً) فلمَّا أعَاد ذِكْرهما في استفهامٍ آخر ذَكَر الكِبَر ليوافِق «عِتِيّاً» رؤوسَ الآي، وهو باب مقصود في الفصاحة، والعطفُ بالواو لا يقتضي ترتيباً زمانياً، فلذلك لم يُبالَ بتقديم ولا تأخير"[59].

فالتقديم في سورة مريم جاء لموافقة صدر الآية الرابعة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4] للفاصلة القرآنية ﴿عتيًا﴾.

فابتدأ بذكر كبر السن ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾، وأتى بإطناب وأكد على الشيخوخة بقوله: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾. ففي الآية الثامنة قدّم عجز امرأته عن الإنجاب، وأنها عاقر على كبر سنه لأنه أصلًا قد مهَّدَ وأكَّدَ على الكِبَرِ أولًا، وثانيًا موافقة للفاصلة. أما في سورة آل عمران فقد قدم كِبَرَ سِنِّهِ لأنه لم يُمَهِّد في الآية قبلها كما مهَّد لذلك في صدر الآيات في سورة مريم، وهذا تقديم معنوي حيث قد غير ترتيب سياق الأفكار.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: 187].

يقول السمين: "وقَدَّمَ قولَه: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ على قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ تنبيهاً على ظهورِ احتياجِ الرجل للمرأةِ وعَدَم صَبْرِهِ عنها، ولأنَّه هو البادِئُ بطلبِ ذلك"[60].

فالسمين هنا يذكر فائدة مهمة في حياة الزوجين وهي أن الرجل محتاج للمرأة أكثر من احتياج المرأة للرجل، ولهذا ينبغي على المرأة أن تعي مفهوم هذه الآية فلا تمتنع عنه إذا دعاها. وأن تعرف أنها مكرّمة وأن القرآن قد حفظ لها كبرياءها فكان تقديم ﴿هُنَّ﴾ أيضًا إكرامًا لها.

---

[55] مسند ابن أبي شيبة، رقم الحديث: 321، 217/1.
[56] الدر المصون: السمين الحلبي، 643/4.
[57] المرجع السابق: 685/8.
[58] المرجع السابق: 451/10.
[59] المرجع السابق: 195/3.
[60] المرجع السابق: 295/2.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 224].

حيث يقول السمين: "وقَدَّم السميع لتقدُّم متعلَّقِه وهو الحَلْفُ"[61].

فالذي يحلف يتكلم بصوته والله سيسمعه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: 16] فناسب يمين الحالف اسم الله السميع. وتعليل السمين هذا مما لا ينتبه إليه قارئ القرآن العادي غير المتفكر، وهذه الإضاءات هي عبارة عن إشراقات في المعنى يولِّدها الفهم العميق الذي نلحظه عند السمين. وهذه الإضافات هي التي يمكن تحصيلها بالتدبر والتفكر. ومعرفة البلاغة تزيد من الإشراقات وتزيد من إدراك المعنى السليم.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

يقول السمين: "وقَدَّم ذِكْرَ الكفر بالطاغوتِ على ذِكْرِ الإيمانِ باللَّهِ اهتماماً بوجوبِ الكفرِ بالطاغوتِ، وناسَبَه اتصالُهُ بلفظِ «الغَيّ»"[62].

فالتقديم هنا بما يتناسب مع تتمة الجملة واتصالها بالتي قبلها مباشرة.

من هنا نعرف أن التقديم والتأخير هو درس يتعلق بالسياق، وهو درس جمالي ذوقي، ليس له قانون محدد، فالتقديم يحسن أحيانًا ويجمل في مكان، وربما كان التأخير يجمل في مكان آخر.

ونرى السمين الحلبي في تفسيره ومروره وتعريجه على التقديم والتأخير يناقش أقوال المفسرين وينقدها ولا يكتفي بنقل الآراء فحسب، بل يأتي بها ويأتي بأقوال تعارضها ثم يقدم رأيه وهذا يدل على سعة وشمولية تفسير السمين وتفتح ذهنه وتوقده. ومن الأمثلة التي ينتقد فيها قولًا للزمخشري ويرفضه مستشهدًا برأي شيخه أبي حيان الأندلسي عند قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: 83].

يقول السمين: "وقَدَّم المفعولَ الذي هو «غير» على فِعْلِهِ لأنه أهمُّ من حيثُ إنَّ الإنكارَ الذي هو معنى الهمزة متوجهٌ إلى المعبودِ بالباطل، هذا كلامُ الزمخشري. قال الشيخ -يعني أبو حيان-: «ولا تحقيقَ فيه لأنَّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة لا يتوجَّه إلى الذوات، إنما يتوجَّه إلى الأفعال التي تتعلَّق بالذوات، فالذي أُنْكر إما هو الابتغاء الذي متعلقه غيرُ دين الله، وإنما جاء تقديمُ المفعول من باب الاتساع، ولشبهِ يبغون بالفاصلة بآخر الفعل» قلت: وأين المعنى من المعنى؟"[63].

فالتقديم هنا كما بيّن السمين جاء لأكثر من غرض أو غاية منها موافقة الفاصلة القرآنية، ومنها أن الله عز وجل قدم المفعول (غير دين الله) زيادة في التشنيع والتسفيه على فكرة ابتغاء الكفار دينًا خاطئًا مغايرًا لدين الله لذلك ابتدأ بهذا الاستفهام الاستنكاري ولو قال: (أيبغون غير دين الله) لما حقق هذا الاستشناع والاستنكار، فتقديم المفعول كان لغاية بلاغية وهو من نوع تقديم ما حقه التأخير، فكان الاهتمام هنا منصبًّا على فكرة التعجّب والاستنكار على قبول العقل البشري للباطل وابتغائه إياه. وهو هنا لم يقل: (الباطل) وإنما قال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ﴾ من باب التذكير بدين الله كمثل شخص (اسمه خالد) يخاطب إنسانًا كان صديقًا له ومقرّبًا منه ولكنه أحب غيره وتركه فيقول له: (أتحب غير خالد) فهذا من باب التحبب له وتذكيره بتاريخ الصداقة والعلاقة الأخوية التي كانت سائدة بينهما.

فالتقديم والتأخير هو بحث دقيق جدًا وقد أحسن السمين شرحه، وربما يكون هناك سبب خفي جعل الجملة نفسها تختلف في ترتيب كلماتها من سورة إلى أخرى، وما يميـز دقة السمين هو مقارنته الآيات المتشابهة فيما بينها في السور المختلفة، ونقرأ في تفسير السمين لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ....﴾ [المائدة: 5].

وقال في البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: 173].

يقول السمين: "وقدم هنا لفظَ الجلالة في قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله﴾ وأُخِّرت هناك، لأنها في البقرة فاصلةٌ أو تشبه الفاصلة بخلافِها هنا، فإنها بعدَها معطوفاتٌ"[64].

من خلال المثال السابق نلحظ وجود اختلاف بسيط جدًا ربما لا ينتبه إليه الكثير من المفسرين، ولنفهم فكرة السمين يجب أن نضع الجملتين تحت بعضهما ثم نقارن ونفهم ماذا فعل السمين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: 5].

وقال في البقرة: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 173].

فالسمين انتبه إلى أن المعطوفات لم تنته في سورة المائدة فلذلك قدم ﴿لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ على ﴿بِهِ﴾ أما في سورة البقرة قدّم ﴿بِهِ﴾ على ﴿لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ لأن المعطوفات تنتهي مع نهاية هذه الجملة ﴿وما أهل به لغير الله﴾ فلذلك قدم ﴿بِهِ﴾ حتى تكون نهاية الجملة ﴿الله﴾ ثم تأتي بعدها جملة أخرى استئنافية. فصار لفظ الجلالة ﴿الله﴾ مثل الفاصلة وهو أنسب لذلك قدم ﴿بِهِ﴾ هنا. وهذا ما أشار إليه السمين وهي إشارة دقيقة جدًا تحتاج إلى تأمل وتفكر.

ومن جماليات التقديم عند السمين أنه في كل تفسير وشرح لتقديم يضيف معنىً جديدًا لا يخطر في بال القارئ وهذه هي البلاغة وجمالها. فحين نقول التحليل البلاغي فإننا نعني ما وراء المعنى أو ما يسمى معنى المعنى وأسبابه.

ففي تفسيره لقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: 31].

---

[61] المرجع السابق: 430/2.
[62] المرجع السابق: 458/2.
[63] المرجع السابق: 295/3.
[64] المرجع السابق: 195/4.

قال السمين: "وقُدِّم التحلِّي على اللِّباس لأنه أَشْهَى للنفسِ"[65]. وهذا القول ربما اقتبسه السمين من الزمخشري، أو من شيخه أبي حيان الذي أورد هذه الفكرة في تفسيريهما، فقد جاء في كتاب البحر المحيط ما يلي: "قال الزمخشري: وَقُدِّمَتِ التَّحْلِيَةُ عَلَى اللِّبَاسِ لِأَنَّ الْحُلِيَّ فِي النَّفْسِ أَعْظَمُ وَإِلَى الْقَلْبِ أَحَبُّ، وَفِي الْقِيمَةِ أَغْلَى، وَفِي الْعَيْنِ أَحْلَى، وَبِنَاءُ فِعْلِهِ لِلْمَفْعُولِ الَّذِي لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ إِشْعَارًا بِأَنَّهُمْ يُكْرَمُونَ بِذَلِكَ وَلَا يَتَعَاطَوْنَ ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ"[66]. وهذا الكلام دقيق جدًا وصحيح؛ فالنفس تشتاق للجمال، ومقياس الجمال في الآخرة يختلف عن مقياس الجمال في الدنيا فالرجال يلبسون الحلي في الآخرة والزينة أيضًا، والسمين هنا يتحدث عن أشياء نفسية دقيقة، فربما كل إنسان يلبس الثياب، ولكن يتميز الإنسان بالحلي، وبالإضافات التي تضاف إلى الثياب، وحتى الثياب عندما تأتي عليها الزينة تجعلها أجمل، وتجعل النفس ترغب في لباسها أكثر.

فللسجود أهميته ومكانته الخاصة لذلك قدَّمه الله، والإنسان يحق له أن يدعو في السجود ما يشاء أن يدعو، ولا يدعو في القيام. وللسجود أهمية أخرى بأنه يُشْعِرُ الإنسان بالتذلل أمام الله عز وجل، وكلما تذلَّل الإنسانُ أكثرَ أمام الله كلما استشعر لذة العبودية.

وأحيانًا يختصر السمين في تحليل وتفسير سبب التقديم ولا ندري هل هذا اختصار مُخْلٌ أو هو اختصارٌ يهدف إلى ألَّا يمل القارئ من تكرار الكلام وكثرة الشرح ومثال ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227].

يقول السمين: "قوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ﴾: منصوبٌ على المصدرِ. والناصبُ له ﴿يَنْقَلِبُون﴾ وقُدِّمَ لتضمُّنِهِ معنى الاستفهامِ"[67]

وهو هنا اختصر في التحليل فلم يذكر مطابقة الفاصلة من أسباب التقديم والتي كان يذكرها في كثير من المواضع وربما أراد أن ينوّع في الأسلوب ولا يعيد نفس الكلام.

ونقرأ أيضا تفسير السمين لقوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: 86].

يقول السمين: "وقَدَّمَ المفعولَ مِنْ أجله على المفعول به اهتماماً به لأنه مُكافِحٌ لهم بأنَّهم على إفْكٍ وباطِلٍ"[68].

فقد قدم المفعول به ﴿آلهة﴾ على الفعل ﴿تُرِيدُونَ﴾ وقد ذكر السمين سبب تقديم ﴿آلِهَةً﴾ ليبين خطورة هذا الإفك وهذا الجرم الكبير، وهذا صحيح فالتقديم كان إظهارًا لشناعة أن تعبد آلهة متعددة دون الله من مثل الأصنام. فتقديم ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً﴾ من نوع زيادة إظهار الشناعة والقباحة، مما يؤدي إلى زيادة إنكار الكفر، فلو قال: (أتريدون إفكًا آلهة دون الله) لما كان المعنى بمثل هذه القوة.

وأحيانا يكون التقديم واجبًا من ناحية قواعد النحو، من مثل قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: 81].

يقول السمين الحلبي: "قوله: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ الله﴾: منصوبٌ ب «تُنْكِرون» وقُدِّمَ وجوباً؛ لأنَّ له صَدْرَ الكلامِ"[69].

وهنا نرى أن السمين لا يذكر سببًا بلاغيًا للتقديم، وكأنه لا يرى أن للتقديم غرضًا إلا إذا كان فيه انزياح في الجملة أو مخالفة للترتيب أو التركيب في الجملة. وربَّما كان هناك غاية من التقديم، فالآية جاءت بأسلوب الاستفهام، وتقديم جملة ﴿أَيَّ آيَاتِ الله﴾ يفيد معانٍ بلاغية، والاستفهام هنا استفهام توبيخي إنكاري، والتقديم لا بد أن يكون له غاية وفائدة بلاغية حتى وإن كان تقديمًا واجبًا.

وهنا يفيد التقديم استنكارُ نكران ورفض مجموع الآيات والدلائل الكثيرة التي ينكرها الملحدون وهنا لم يقل: (فأي آية من آيات الله تنكرون) وإنما قال: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ والجمع يفيد الشمول والعموم.

ومن التعليلات التي ابتعد فيها عن الصواب حيث جزم بها السمين الحلبي وهي أصلًا مسألة فيها رأيان تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بما ينفع الناس.....﴾ [البقرة: 164] إلى آخر الآية.

إذ يقول السَّمين: "وقَدَّم الليلَ على النهار لأنَّه سابقهُ، قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار﴾ [يس: 37] وهذا أصحُّ القولين، وقيل: النورُ سابِقُ الظلمةِ وينبني على هذا الخلافِ فائدةٌ: وهي أن الليلةَ هل هي تابعةٌ لليومِ قبلَها أو لليومِ بعدَها؟ فعلى القولِ الصحيح تكونُ الليلةُ لليوم بعدها، فيكونُ اليومُ تابعاً لها. وعلى القولِ الثاني تكونُ لليومِ قبلَها فتكونُ الليلةُ تابعةً له، فيومُ عرفةَ على القولِ الأولِ مستثنىً من الأصل فإنه تابعٌ لليلةِ بعدَه، وعلى الثاني جاءَ على الأصل"[70].

نرى أن السمين استند في ترجيحه أن الليل سابق النهار على قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار﴾ وهذه الآية لا تدل على أن الليل سابق للنهار بدليل قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: 40] وقد أورد السمين رأيًا يقول بأن النور يسبق الظلام وهذه في النهاية مسألة سفسطائية فتقديم الليل في الآية ربما يكون لما له من سكون وتجليات إلهية فالله عز وجل ينزل في ثلث الليل الأخير إلى السماء الدنيا ويقول: هل من داع فأستجيب له.... هل من مستغفر فأغفر له. وعلاوة على ذلك كثير من الشعراء تغنَّوا بالليل وجماله وسكونه وسحره أكثر بكثير مما كانوا يذكرون النهار.

ومن المآخذ على تحليل السمين للتقدم والتأخير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 234]. يقول السمين في كلامه عن هذه الآية: "و«بما تعملون» متعلق ب «خبيرٌ». وقُدِّمَ لأجلِ الفاصلةِ"[71]. فقد ذكر السمين هنا سببًا للتقديم ونسي أسبابًا أخرى لهذا التقديم البلاغي -تقديم ما حقه التأخير-.

بناء على قواعد اللغة العربية كان يفترض أن يكون القول ﴿والله خبير بما تعملون﴾ ولكنه قدم الجار والمجرور ﴿بما تَعْمَلُون﴾ حتى ينتبه الإنسان إلى عمله. فالله عز وجل خبير ببواطن العمل صغيره أو عظيمه حتى يحسِّنَ الإنسان من عمله ويتقنه ويخاف الله حين يعمل. فكان السمين هنا مقتصرًا مختصرًا على جانب واحد وهو جانب الفاصلة القرآنية.

---

[65] الدر المصون: السمين الحلبي، 483/7.
[66] البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، 171/7.
[67] الدر المصون: السمين الحلبي، 567/8.
[68] المرجع السابق: 319/9.
[69] المرجع السابق: 501/6.
[70] المرجع السابق: 200/2.
[71] المرجع السابق: 481/2.

ومن سلبيات السمين في تحليله للتقديم والتأخير أنه يختصر أحيانًا اختصارًا مُخِلًا فلو نظرنا إلى تحليله لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: 70].

حيث يقول السمين: "﴿وفريقاً﴾ مفعول به مقدّم لِـ ﴿كَذَّبوا﴾ و﴿فريقاً﴾ الثانية مفعول به منصوب لِـ ﴿يقتلون﴾ وإنما قدَّمَ مفعولَ ﴿يقتلون﴾ لتواخي رؤوسِ الآي، وقَدَّم مفعولَ ﴿كَذَّبوا﴾ مناسبة لما بعده"[72].

وهنا كانت إشارته صحيحة حين أشار أن تقديم ﴿فريقًا﴾ الأولى على ﴿كَذَّبوا﴾ من أجل أن توافق وتناسب ترتيب الجملة التي بعدها ﴿فريقًا يَقْتُلُونَ﴾. وقدّم ﴿فريقًا﴾ الثانية حتى تتأخر ﴿يَقْتُلُونَ﴾ فتصبح فاصلة تتوافق مع فواصل الآيات السابقة واللاحقة.

ولكن السمين لم يذكر لماذا قدّم الله تعالى (التكذيب) على (القتل) مع أن القتل أشنع وأفظع ولم يقل: ﴿فريقًا قتلوا وفريقًا يكذبون﴾.

ونرى السمين أحيانًا حين يريد ذكر سبب التقديم فإنه يذكر سببين وهما صحيحان، ولكنه يضع حرف العطف (أو) بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: 96]. يقول السمين: "وقَدَّم ﴿إِلَيْهِ﴾ على ﴿تُحْشَرُونَ﴾ للاختصاص أي: تُحشرون إليه لا إلى غيره، أو لتناسُبِ رؤوس الآي"[73].

وهنا الصواب أن يعطف بالواو فيقول: (ولتناسب...) فهو أخطأ حين قال: (أو). وباللغة العربية تفيد (أو) التخيير؛ أي اختيار أحد السببين لا كلاهما، وهنا أفاد التقديم كلا السببين لا أحدهما. وهذه يمكن عدها هِنة أي خطأً بسيطًا. كونه لغويًا فكان -رحمه الله- ينبغي عليه أن ينتبه أكثر لدقة الألفاظ.

وأحيانا نجد أن السمين يختصر كثيرًا من المعاني، ويقتصر على غرض واحد للتقديم من مثل قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 66]. حيث قال السمين: "قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بما بعده وهو توكيد وقدَّم لأجل الفواصل"[74].

وهنا لم يذكر السمين عن ذكر الغرض البلاغي، فالتقديم هنا تقديم بلاغي وهو من نوع تقديم ما حقه التأخير. ولم يذكر إلا أنه "قُدِّمَ لأجل الفاصلة" وأغفلَ التقديم للاهتمام بالشيء المتقدم والتنبيه على فكرة أن الرسول ليس مسؤولًا عن هداية هؤلاء وقدم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ هنا ليفيد أنكم لستم بضارّي النبي إذا كذبتم رسالته، فالنفي بـ ﴿لَسْتُ﴾ التي سبقت ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أكدّت أنهم ليسوا بمعجزين أو ضارّين وجاء حرف الجر الزائد (الباء) لزيادة توكيد المعنى المراد.

ومثله تمامًا تفسير السمين لقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[75] [الأنعام: 89].

يقول السمين: "والباءُ في «بها» متعلقةٌ بخبر ليس، وقُدِّم على عاملها للفواصل"[76]. فهنا أيضًا اختصر فذكر سببا واحدًا للتقديم وهو عامل الفاصلة، ولم يذكر الغرض البلاغي المعروف وهو الاهتمام بالشيء المتقدم، فحين قدم ﴿بِهَا﴾ فهو يؤكد على أن هناك قومًا يؤمنون بها و﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ فالتقديم هنا لإعلاء شأن الرسالة وأن الله قد حفظها واسترعاها رسله وأنبياءه ولو قال: (وليسوا بكافرين بها) لما حصّل المعنى المراد بالاهتمام بها والتنبيه على أهميتها.

ومثله تمامًا: تفسير السمين لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 92]. حيث يقول السمين: "وقدَّم ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾ لأجل الفاصلة"[77]. فالتقديم هنا بلاغي يفيد الاهتمام بالمتقدم وهنا قدم الصلاة لعظم أهميتها؛ فالصلاة عماد الدين كما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام، والتقديم من أجل الفاصلة هو أيضًا صحيح، ولكن هناك سبب ثانٍ أغفله السمين. ولو قال: (وهم يحافظون على صلاتهم) لما كان فيها هذا التأثير في نفس السامع والمتلقي، لذا فالتقديم يجعلنا نستشعر أهمية الصلاة.

ومثله تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: 96].

يقول السمين: "وقُدِّمَ الجارُّ على متعلقه لتواخي رؤوسِ الآي"[78]. فهو ذكر غرضًا واحدًا للتقديم والتأخير هنا، وهو توافق الفاصلة، ولكن تقديم ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ هنا له غاية ومعنى وحكمة مهمة؛ وهو أن القرآن يريد أن يصور الكثرة الهائلة لأعداد يأجوج ومأجوج فقدّمها للأهمية. ولو قال: (وهم ينسلون من كل حدب) لما أتى بهذا الإدهاش ولما كانت هذه الصورة مفزعة ومخيفة.

ومثله تمامًا: تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115].

يقول السمين: "وقدَّم ﴿إلينا﴾ على ﴿تُرْجَعون﴾ لأجل الفواصلِ"[79]. وكلام السمين صحيح، ولكن هناك غاية أخرى للتقديم أنقصها السمين، فهنا التقديم بلاغي يفيد الاهتمام بالشيء المتقدم وفي الآية ركز الله تعالى على لفظ ﴿إلينا﴾ لأن (نا) هنا تعود على الله عز وجل والتقديم للاهتمام. فالله يريد أن يشعر السامع وينبهه إلى أن الرجوع ليس إلى أحد سواه حتى يتذكر الإنسان يوم الحشر ويتذكر أنّ الرجوع إلى الله فيحسّن عمله.

ومثله تمامًا: تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [سورة الزخرف: 73].

يقول السمين: "وقُدِّم الجارُّ لأجلِ الفاصلةِ"[80]. وهناك أسباب أخرى للتقديم أغفلها السمين وهي الاهتمام بالشيء المتقدم. والأصل في تركيب الجملة: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ تأكلون منها﴾.

ومثله تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [سورة المطففين: 29].

يقول السمين: "قوله: ﴿مِنَ الذين آمَنُواْ﴾: متعلِّقٌ بـِ ﴿يَضْحكون﴾، أي: مِنْ أجلِهم، وقُدِّمَ لأجل الفواصلِ"[81].

---

[72] المرجع السابق: 364/4.
[73] المرجع السابق: 431/4.
[74] المرجع السابق: 673/4.
[75] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 89].
[76] الدر المصون: السمين الحلبي، 31/5.
[77] المرجع السابق: 40/5.
[78] المرجع السابق: 204/8.
[79] المرجع السابق: 375/8.
[80] المرجع السابق: 606/9.

وقد اختصر السمين المعاني فالمجرمون وفق هذا التقديم يفيد أنهم لا يضحكون ولا يسخرون إلا من الذين آمنوا، أو أن سخريتهم من الذين آمنوا أكثر بكثير من سخريتهم من غيرهم لدرجة أنّ الله خصَّهم بالسخرية من المؤمنين وحدهم لشدة بغضهم لهم، فكأنهم صار شغلهم الشاغل السخرية من المؤمنين ولذلك كان هذا التقديم.

وأحيانا يجانب تحليل السمين الصواب، ويخطئ في التحليل، فيظن أن كل تقديم يفيد الاهتمام أو الاختصاص وهذا ليس صحيحًا. وهنا نطرح مثالًا:

فالسمين عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [سورة هود: 2]. يقول: "وقدَّم الإنذار لأنَّ التخويف أَهَمُّ إذ يحصُل به الانزجار"[82].

وكلامه هذا ليس صحيحًا فالتخويف ليس أهم من التبشير بدليل تقديم التبشير على الإنذار في كثير من المواطن في القرآن الكريم منها قوله تعالى:

- في البقرة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: 119].
- وفي سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28].
- وفي فاطر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24].
- وفي فصلت: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: 3-4].

وإذا أردنا أن نعرف لماذا قُدِّمت (النذارة) على (البشارة) في سورة هود فيجب علينا أن ننظر إلى السياق أي إلى سابق الكلام ولاحقه فنرى أن هذه الآية سبقت بنهي عن عبادة غير الله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: 2]، وهذا النهي هو أسلوب إنشائي وقوة وفيه ترهيب وتخويف، لذلك ناسبه أن يبدأ بالنذارة ولا يناسبه هنا أن يبدأ بالبشارة، والسمين قد علل تعليلًا خاطئًا إذا اعتمد على فكرة أن كل ما يكون تقديمًا يكون لسبب الاختصاص والاهتمام، ولكنه لم ينظر إلى بقية الآيات. ولو نظر السمين إلى بقية الآيات وانتبه إلى تقديم البشارة على النذارة في كثير المواطن لما ذكر هذا التحليل (الكلام) لأن التقديم هنا تم بسبب السياق الوارد قبل الآية.

ومن جانب آخر فإن الأنبياء وإن كانوا قد بعثوا مبشرين ومنذرين، ولكنهم يغلب عليهم طابع الرحمة والرأفة أكثر، ودليل أن الرسول يغلب عليه طابع الرأفة والرحمة أنه كان من شدة رغبته وحرصه على أن يسلم الناس كان يرهق نفسه لدرجة الهلاك، فالله عز وجل قال له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3]. فلذلك وبناءً على فكرة أن الرحمة عند الأنبياء هي صفة غالبة، لذلك قدَّم في كثير من المواطن البشارة على النذارة، ولكن في هذا السياق اختلف الترتيب بسبب ما جاء قبلها.

ونقرأ أيضا تفسير السمين لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 29].

يقول السمين: "وقَدَّم هنا الإخفاء على الإبداء وجَعَلَ محلَّهما الصدورَ وجعل جواب الشرطِ العلمَ بخلافِ ما في البقرة، فإنه قَدَّم فيها الإبداءَ على الإخفاء، وجَعَل محملهما النفسَ، وجَعَل جوابَ الشرط المحاسبةَ، وكلُّ ذلك تفنُّنٌ في البلاغة وتنوع في الفصاحة"[83].

هنا ذكر السمين أسبابًا عامّة شاملة ولم يتطرق إلى السبب الحقيقي. وبرأينا أن لفظ (الإخفاء) تقدم لإظهار قوة علم الله وعِظَمِه فالعلم بالشيء المخفي أصعب وأعجز من ذكر الشيء الظاهر الذي يبديه الإنسان حيث يكون المذكور ظاهرًا ومعروفًا للناس بخلاف الأمر المخفي. فالسمين اقتصر في التعليل على القول بأن سبب التقديم هو تفنن البلاغة وتنوع الفصاحة وهو كلام وإن كان صحيحًا وجميلًا، ولكنه كلام عام يفيد الشمول وليس فيه تعليل.

ونقرأ أيضا تفسير السمين لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17].

يقول السمين الحلبي: "وقدَّم بين الأيدي على الخلف لأنها الجهة التي تدلُّ على إقدام العدو وبسالته في مواجهة قِرْنِه غيرَ خائفٍ منه، والخلف جهةُ غَدْرٍ ومخاتلة (يعني ومكر وخديعة) وجهالة القِرْن بمَنْ يغتاله ويتطلب غِرَّته وغَفْلَتَه، وخَصَّ الأيمان والشمائل بالحرف الذي يدلُّ على المجاوزة لأنهما ليستا بأغلب ما يأتي منهما العدو، وإنما يجاوز إتيانَه إلى الجهة التي هي أغلب في ذلك، وقُدِّمت الأيمان على الشمائل لأنها هي الجهةُ القويةُ في ملاقاة العدو، وبالأَيْمان البطشُ والدفعُ، فالقِرْنُ الذي يأتي مِنْ جهتها أبسلُ وأشجع إذ جاء من الجهة التي هي أقوى في الدفع، والشمائل ليست في القوة والدفع كالأيمان"[84].

نلحظ أن السمين لم يحلل قول الله على لسان إبليس تحليلًا وفق مراد الشيطان، بل حلله وفق رؤية العدو المتعارف عليه، فحين ذكر أن الشيطان ابتدأ بالمجيئ من الأمام وصف الشيطان بالإقدام والبسالة وعدم الخوف وهذا خطأ وذلك لأن الله عزَّ وجلَّ يصف كيد الشيطان بأنه كيد ضعيف، قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76]. والسمين أيضًا بعد ذلك ذكر مجيء الشيطان من الخلف ووصفه بأنه جهة غدر ومخاتلة (مكر وخديعة).

والصواب في التحليل أن نقول: أن الشيطان وإن قدَّم إتيانه من الأمام ولكنه يأتي من الخلف أكثر وهو يتصف بالختل والغدر والخديعة أكثر. ولكنه أراد أن يظهر القوة فقدّم المجيء من الأمام ولكنه ليس قويًا، وليس عنده بسالة كما ذكر السمين، وقولنا هذا يأتي استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76]. واللعين إبليس يكذب في إظهار بسالته حين قدّم المجيء من الأمام بدليل حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي هريرة في وصف إبليس: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ»[85]. فالشيطان عمومًا وإبليس خصوصًا يتصف بالمكر والخديعة والغدر وهذا لا يعيبه في نظر معشر الشيطان فالغاية عندهم هي الإيقاع بابن آدم وليس طريقة وجهة الوصول والإيقاع. فالسمين ناقش وحلّل الجهات ومجيء الشيطان وكأنه يحلل صفات عدو ظاهر أمامنا من جماعة البشر، وغاب عن ذهنه أن الشيطان كذوب، وهو عندما كان يخاطب رب العالمين كان يحاول إظهار القوة والعظمة والتكبر وذلك كان في سياق التحدي لله عز وجل.

---

[81] المرجع السابق: 726/10.
[82] المرجع السابق: 281/6.
[83] المرجع السابق: 114/3.
[84] المرجع السابق: 269/5.
[85] صحيح البخاري: رقم الحديث: 3275، 123/4.

ونقرأ أيضا تفسير السمين لقوله تعالى: "قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي" [الأعراف: 144].

يقول السمين: "وقَدَّم الرسالة على الكلام لأنها أسبقُ أو ليترقَّى إلى الأشرفِ"[86].

فالعلتان اللتان ساقهما وذكرهما السمين خاطئتان، فالله عز وجل لم يقدم الرسالة لأنها أسبق زمنيًا، بل إن (الكلام) كان أسبق من الرسالة زمنيًا فحين ناداه الله عز وجل بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: 12] لم يكن موسى حينها نبيًا مرسلًا ولم يكن يعرف ما هذه النار التي أمامه ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۞ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى ۞ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: 10-12] فهنا لم يكن نبيًا، فبعد مجيء سيدنا موسى كلَّمه الله وقال له: بأنه هو الله وأمره أن يخلع نعليه ثم سأله عن العصا وأمره أن يرميها وأن يضع يده في جيبه، ثم بعد ذلك أخبره بأنه اختاره نبيًا ورسولًا إلى بني إسرائيل واصطفاه: ﴿قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 144].

ثم إن الرسالة هي أشرف من التكليم وحتى نفهم هذه الفكرة يجب علينا أن نتصور أحد الأمرين فإذا ما خُيّر النبي إما أن يؤتى الرسالة أو يُكرَّم بالتكليم فقط، فلا شك أنه سيختار الرسالة، فهي بلا شك أعلى درجة وأشرف من التكليم. إذن فالتقديم كان لأن الرسالة أشرف من التكليم هذا والله تعالى أعلم وعمله أتم وأحكم.

ومن الأشياء التي يمكن أن ننتقد فيها السمين أنه يفسر ويعلل سبب التقديم بكلمة واحدة وهذا إخلال. فمثلًا ننظر إلى تفسير السمين لقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 177].

فيقول: "وقُدِّمَ المفعولُ ليفيدَ الاختصاص"[87].

وقول السمين "يفيد الاختصاص" صحيح، ولكن هذه كلمة مختصرة شاملة تفيد العموم وربما لا يفهمها إلا أهل التخصص أو البلاغيون أو النحويون، أما القارئ العادي فربما لا يستطيع أن يفهم المراد من قوله: "يفيد الاختصاص" والأجدر به لو فسّر سبب التقديم بكلام أطول.

فنقول مثلًا إن تقديم ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ هنا يفيد أن الذي يظلم وإن تعدّى ظلمه غيره، ولكنه لا يظلم إلا نفسه أولًا وآخرًا وفق مراد الآية في هذا السياق الذي ورد فيه التقديم. لأنه في البلاغة تقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص. فالقول: (وأنفسهم كانوا يظلمون) مثل قولنا (لا يظلمون إلا أنفسهم). فالظلم هنا يقع عليهم فقط دون غيرهم. وهذا المعنى يوصلنا إلى غاية أبلغ وإلى نتيجة أهم وهي التحذير من الظلم وهذا ما يسمى في البلاغة: معنى المعنى.

ومن التحليلات التي تبتعد عن الصواب عند السمين حين حلل سبب التقديم في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22].

يقول السمين: "وقدَّم أولاً الآباءَ لأنهم تجبُ طاعتُهم على أبنائِهم، ثم ثَنَّى بالأبناءِ لأنهم أَعْلَقُ بالقلوب وهم حَبَّاتُها"[88].

وهنا نقول: الأولى عند القارئ العادي أو (في ظاهر سياق الآيات) أن يُقدّم ذكر الأبناء لأنه يذكر المودة؛ فالأبناء أقرب وأعلق بالقلوب.

وعلل السمين تقديم القرآن للآباء بأنه: "تجبُ طاعتُهم" وهذا تعليل ضعيف. فالصواب أن الله قدّم الآباء لمكانتهم ولفضلهم ولا سيّما أنه كان في صدر الآية يتكلم عن الإيمان والمؤمنين وليس حديثه عن الكفار. فحين يذكر المؤمنين فهو يذكرهم بالإيمان حتى يلامس قلوبهم. فهو ينفي الإيمان عمن يحب بِشِدَّة من عادى الله ولو كان قدره الأب الذي أوصى به، فالله أوصانا ببر الآباء والإحسان إليهم ولم يوصِنَا ببر الأبناء.

فالقرآن الكريم لغة البيان العالي ولم يقدم الآباء دائمًا ففي سياق الهروب في يوم الحشر من أجل الحسنات والنجاة ذكر أن الإنسان يهرب أولًا مع أخيه وذلك مراعاة لمشاعر الأم والأب: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [سورة عبس: 34-35].

الخاتمة

إن ظاهرة التقديم والتأخير لها عظيم الأثر في المعنى سواء كان التقديم تقديمًا بلاغيًا بمعنى تقديم ما حقه التأخير، أو تقديمًا ترتيبيًا خاصًا بالمعنى. فالتقديم والتأخير في القرآن عمومًا يفيد في خدمة المعنى جماليًا وذوقيًا، فالقرآن الكريم لغة البيان العالي فقد يكون التقديم في القرآن الكريم للتشريف أو لمناسبة المتقدم من سياق الكلام، أو للحضّ على الأفعال التي يأمر بها الله والحث عليها في سياقات الأوامر. أو المنع في سياق النهي أو يفيد السبق الزماني، أو يفيد السببية أو الكثرة، أو الترقي من أدنى إلى الأعلى، أو رعاية الفواصل، أو إفادة الحصر للاختصاص.

وما يميز السمين قوته في النحو والبلاغة والتفسير معًا. فكلما ازدادت علوم المفسر كلما كان أقدر على فهم الأغراض البلاغية في التقديم والتأخير، أو المجاز، أو الاستعارة، أو الكناية... ولاحظنا أن السمين الحلبي يتميز بدقة الملاحظة والإحاطة والشمولية في رؤيته الشاملة لعموم الآراء لذا فنراه يختار من التفاسير الرأي الذي يناسب اللغة العربية ويوافق النحو والبلاغة. فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب وكلما كان المفسر ملمًا بقواعد اللغة كان أكثر فهمًا للتفاسير وهذا ما نجده عند السمين الحلبي

النتائج

1) خلص البحث إلى أن السمين الحلبي أدرك أهمية ظاهرة التقديم والتأخير كونها ظاهرة لغوية وطاقة أسلوبية يتم بواسطتها تغيير أو انزياح الأماكن الاعتيادية لمفردات الجملة أو لمفردات النص. فكان يتقن تركيب الأفكار وفق أهداف محددة وغايات بلاغية وجمالية فامتاز تحليله في التقديم والتأخير بالدقة والخوض في تفاصيل الأمثلة.
2) خلص البحث إلى أن السمين الحلبي خاض في المقارنات بين الآيات التي ورد فيها تقديم وتأخير وبين آيات أخرى تتحدث عن نفس الموضوع اختلف فيها ترتيب العبارات وكان يأتي بتشبيهات حتى يقرب التصور عند المتلقي فيزيد الفهم.

---

[86] الدر المصون: السمين الحلبي، 451/5.
[87] المرجع السابق: 520/5.
[88] المرجع السابق: 275/10.

3) خلص البحث إلى أن ترجيحات السمين في سياقات التقديم والتأخير أفادت استنباط معانٍ جديدة تُفْهم من خلال الغوص في معاني الألفاظ والكلمات والعبارات فنراه فيما يخص المتراجحات يتقن فن التعليل والترجيح في أمرين أحدهما مقدَّم على الثاني (المؤخر).

4) أظهر الباحث في طيَّات بحثه المتكررة أن السمين الحلبي كان يحلل في الآية ويفسرها ويفصل الكلام في دقائقها التي يمكن أن نسميها في البلاغة (معنى المعنى) أو (ما وراء المعنى) وهو ما ذكره البلاغيون في كتب البلاغة وفق بحث التقديم والتأخير وتوجيهاته ويأتي على رأسها الاختصاص والاهتمام بالشيء المتقدم ورعاية الفاصلة

5) بين الباحث أن السمين الحلبي في تفسيره الدر المصون كان أحيانًا يبتعد عن الصواب في تحليله في التقديم والتأخير بسبب اختصاره أحيانًا واقتصاره على ذكر سبب وغرض واحد للتقديم والتأخير وإهماله أسبابًا أخرى أو بسبب تأثره بقول لمفسر آخر أو برأي خاطئ للغوي أو نحوي.

6) خلص البحث إلى أن تفسير السمين الحلبي هو من أهم التفسيرات التي اهتمت بجماليات اللغة العربية وكشف حسنها ولا سِيَّما في موضوع التقديم والتأخير الذي كان متعمقًا بالخوض فيه.

المصادر والمراجع

- **البرهان في علوم القرآن**: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: 794هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، 1376هـ - 1957م.
- **البحر المحيط في التفسير:** أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: 745هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.
- **جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)**: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م.
- **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيام (صحيح البخاري)**: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (256 هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد المعروف بالسمين الحلبي (ت: 756هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د.ت.
- **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: 852هـ)، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر آباد - الهند، الطبعة الثانية، 1392هـ - 1972م.
- **دلائل الإعجاز في علم المعاني**: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت: 471 هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، 1413هـ - 1992م.
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت: 845هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.
- **الصحاح**: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: 393 هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1407هـ - 1987م.
- **طبقات الشافعية:** أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة (ت: 851 هـ)، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ.
- **طبقات الشافعية**: عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعيّ، أبو محمد، جمال الدين (ت: 772هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م.
- **العقد المذهب في طبقات حملة المذهب**: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت: 804 هـ)، تحقيق: أيمن نصر الأزهري - سيد مهني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م.
- **غاية النهاية في طبقات القراء**: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت: 833 هـ)، مكتبة ابن تيمية، د.ت، د.ط.
- **كتاب العين**: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: 170 هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي - إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.
- **الكتاب**: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (ت: 180هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408هـ - 1988م.
- **لسان العرب**: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: 711 هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ.
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (ت: 637هـ) تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- **مسند ابن أبي شيبة**: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: 235هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي وأحمد بن فريد المزيدي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، 1997م.
- **معجم اللغة العربية المعاصرة**: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: 1424هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1429هـ - 2008م.
- **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**: مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م.
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت: 874 هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، د.ط، د.ت.
- **دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة تحليلية**، منير محمود المسيري، مكتبة وهبة، بيروت، ط1، 1426/2005.